



ليـون روش

(Léon Roches)

اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام

مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز



نقلها إلى العربية وقدّم لها وعلّق عليها :

محمد خير محمود البقاعي

Jadawel جداول

ليون روش

(Léon Roches)

اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام

مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز

نقلها إلى العربية وقدّم لها وعلّق عليها:

محمد خير محمود البقاعي



Jadawel جداول

TRENTE-DEUX ANS

A TRAVERS L'ISLAM.

(1832-1864.)

PAR

LÉON ROCHES,

MINISTRE PLÉNIPOTENTIAIRE EN RETRAITE,
ANCIEN SECRÉTAIRE INTIME DE L'ÉMIR ABD-EL-KADER,
ANCIEN INTERPRÈTE EN CHEF DE L'ARMÉE D'AFRIQUE.

TOME PREMIER.

ALGÉRIE. — ABD-EL-KADER.



PARIS,
LIBRAIRIE DE FIRMIN-DIDOT ET Cie,
IMPRIMEURS DE L'INSTITUT,
RUE JACOB, 56.

—

1884.

الجزء الأول من كتاب ليون روش

الكتاب : **اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام**
المؤلف : **ليون روش**
نقلها إلى العربية وقدّم لها وعلّق عليها : **محمد خير محمود البقاعي**

جداول
للنشر والتوزيع
الحمرا ـ شارع الكويت ـ بناية البركة ـ الطابق الأول
هاتف: 746638 1 00961 ـ فاكس: 746637 1 00961
ص.ب: 5558 ـ 13 شوران ـ بيروت ـ لبنان
e-mail: info@jadawel.net
www.jadawel.net

الطبعة الأولى
كانون الأول / ديسمبر 2011
ISBN 978-614-418-108-9

طبع في لبنان

copyright © **Jadawel** S.A.R.L
Hamra Str. - Al-Barakah Bldg.
P.O.Box: 5558 - 13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2011 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج . إبراهيم

المحتويات

مقدّمة الترجمة 7
الكلمة الأولى 7
حياته 12
عنوان كتابه 16
مذكرات ليون روش 19
الفتوى 21
مرافقو روش ومساعدوه 22

الكتاب الأول: القيروان ومصر 31
الفصل السادس 33
الفصل السابع 41

الكتاب الثاني: المدينة 49
الفصل الثامن 51
الفصل التاسع 59
الفصل العاشر 69
الفصل الحادي عشر 75

الكتاب الثالث: مكّة 83
الفصل الثاني عشر 85
الفصل الثالث عشر 91

الفصل الرابع عشر 103
الفصل الخامس عشر 113
الفصل السادس عشر 119
الفصل السابع عشر 129
الفصل الثامن عشر 137
الفصل التاسع عشر 147
الفصل العشرون 153
الفصل الحادي والعشرون 167

الكتاب الرابع: من جدّة إلى الإسكندرية 173
الفصل الثاني والعشرون 175

مقدّمة الترجمة

الكلمة الأولى:

يقول الفرنسي المسلم ناصر الدين دينيه (Alfons Etienne Dinet)[1] في كتابه الذي ألفه بالاشتراك مع صديقه الجزائري

---

(1) هذا هو الاسم الذي اتخذه هذا الفرنسي بعد إسلامه. ولد دينيه في باريس في 28 آذار/ مارس1861م، وظهرت ميوله ومواهبه الفنية في سن العاشرة، فدرس الفن على الرغم من اعتراض أسرته. وقضى أربع سنوات في كلية جوليان، وحصل على تقدير جمعية الرسامين الفرنسيين على لوحتيه «الأم كلوتيد» و«صخرة صاموا». قام في عام 1884م برحلة إلى الجنوب الجزائري، فأدهشته الصحراء بروعتها، فقرر العودة في عام 1885م. وجال في الصحراء حتى استقر في بوسعادة حيث التقى في عام 1881م شابًا من بوسعادة هو سليمان بن إبراهيم باعامر الذي أنقذ حياته وناصره عندما اعتدى عليه اليهود، وتوثقت عرى الصداقة بينهما. وقد أسلم دينيه في سنة 1913م بعد أن درس اللغة العربية، ثم حج إلى البقاع المقدسة في نيسان/أبريل 1929م، وألف عن هذه الرحلة كتابه **الحج إلى بيت الله الحرام**. توفي في 24 كانون الأول/ديسمبر 1929م عن عمر يناهز الثامنة والستين، ونقل جثمانه إلى بوسعادة حيث دفن فيها في 12 كانون الثاني/ يناير 1930م، وأصبح بيته متحفًا لأعماله وآثاره ومخلفاته. انظر كتاب: **حياة إتيين دينيه**، تأليف جان دينيه لورنس، ميزونوف، باريس 1938م، وكتاب: **ناصر الدين دينيه، الفنان المبدع في الرسم الجزائري**، قدم له أحمد طالب الإبراهيمي، وقدم الكتاب واختار تعاليقه سيد أحمد باغلي، وفيه نبذة عن نصر (كذا) الدين دينيه وآثاره، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب =

الحاج سليمان بن إبراهيم باعمر بعنوان **الحج إلى بيت الله الحرام**[1]: (إن بعض الأوروبيين الذين اهتدوا إلى الإسلام، أو الذين أقسموا بأغلظ الأيمان أنهم اعتنقوا الإسلام وصفوا رحلاتهم إلى الحج بالتفصيل. ولم يقم أحدهم برحلته دون أن يتعرف الناس إليه. وإن أفضل وصف قرأناه هو وصف السويسري جون لويس بوركهارت (John Lewis Burckhardt)، ووصف البريطاني برتون (Burton))[2].

ثم شرع في الحديث عما عرفه من قصص الرحلات حديثًا نقديًا، ينتقد من خلاله الروح السلبية التي تحدث فيها أولئك الذين كانوا، في رأيه، يظنون أنهم متنكرون، ويورد ما يدل على أن الناس كانوا يعرفون بوجود هؤلاء الرحالة في الحج.

= في الجزائر، 1984م؛ ومقالة بعنوان: «حياة رسام الواحات ناصر الدين دينيه وآثاره» للأستاذ أحمد عبد الكريم، مجلة **الفيصل**، العدد 278، شعبان 1420هـ/ كانون الأول/ديسمبر 199م، ص 39 ـ 45؛ وبحثًا بعنوان: «ناصر الدين دينيه وكتابه: **الحج إلى بيت الله الحرام، دراسة ووثائق مختارة**»، د. محمد خير البقاعي، منشور في كتاب، **من رحلات الفرنسيين إلى الجزيرة العربية**، مؤسسة التراث، الرياض 1425هـ/ 2004م، ص154 ـ 174.

(1) ترجمة وتقديم عبد النبي ذاكر. **الحج إلى بيت الله الحرام**، 1347هـ/ 1929م، الحاج ناصر الدين ألفونس إتيان ديني والحاج سليمان بن إبراهيم باعمر؛ منشورات المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، مطبعة أنفو ـ برينت، 2006.

(2) قارن بترجمة الدكتور عبد النبي ذاكر، م. س، ص121.

ولكن تسامح المسلمين، وحسن نواياهم تجاه من لهج لسانه بالاهتداء إلى الإسلام جعلهم يغضون الطرف عنهم.

وعندما يعرض دينيه لرحلة ليون روش (Leon Roches) يقول: (ليون روش وكتابه **عشر سنوات في رحاب الإسلام**[1]، يروي قصة رحلته إلى بلاد الشرق، وحجه إلى مكّة المكرّمة؛ تلك الرحلة التي كلفه بها المارشال بوجو (Bugeaud)[2] في عام 1841م. ويصعب علينا الحكم بصحة رحلته لأنه ليس أبا عذرة أوصاف مكّة المكرّمة والمدينة النبوية التي أوردها في كتابه. وعلى الرغم من أنه يؤكد مرارًا وتكرارًا، ويلح على أن ما يكتبه مستمد حصرًا وبدقة وأمانة من الملحوظات

---

(1) عنوانه بالفرنسية: *Dix ans à Travers l'Islam*. وسنناقش هذا العنوان في فقرة خاصة من هذه المقدمة.

(2) توماس روبير بوجو دولا بيكونري (Thomas R. Bugeaud de la Piconnerie) جنرال ثم مارشال فرنسي ولد في ليموج عام 1748م، ومات في باريس عام 1849م. وطد الاستعمار الفرنسي في الجزائر عندما أرسل إليها في عام 1836م، وحارب الأمير بلا هوادة في الثلاثينيات الميلادية في إقليم وهران ووقع معه معاهدة التافنة، ثم أصبح من دعاة القضاء عليه واتباع سياسة الأرض المحروقة في الجزائر. عين في عام 1840م حاكمًا عامًا للجزائر، وله كتابان: حرب **أفريقيا** 1839م؛ **تأملات وذكريات عسكرية** 1845م. استقال وعاد إلى فرنسا في عام 1847م، أي قبل نهاية مقاومة الأمير بنصف سنة تقريبًا. ودارت بينه وبين الأمير عبد القادر مراسلات عندما كان هذا الأخير أسيرًا في فرنسا. انظر كتاب: **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، للدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1424هـ/ 2003م، ص323 ـ 324.

التي كان يدونها في مفكرته كل مساء إبَّان رحلته. على ذلك فمن المستحيل أن نجد في كل ما أورده من وصف أو معلومات جغرافية أو إثنوغرافية ملاحظة أو اسم مكان لم يقتبسه بكليته من كتاب بوركهارت حصرًا. وليس لروش في كتابه هذا إلا بعض المغامرات الخيالية التي روى أمثالها في القسم الذي خصصه للجزائر من رحلته. إن كل تلك المغامرات أوهام لا أصل لها؛ منها ادعاؤه أنه ألقى خطبة أمام الشريف الأكبر، وأن الشريف الأكبر ألقى كلمة جوابية. وعندما أراد أن يضيف شيئًا من عنده ارتكب خطأ فاحشًا في الحديث عن قبر النبي ﷺ، وعلى الرغم من ذلك فإن الوصف مستمد بتمامه من كتاب بوركهارت)[1]. ولا يُلتفت إلى قول روش: (إن تلك الأوصاف التي يوردها للمسجد النبوي منقولة عن الدليل الذي كان يرافقه في زيارته، ومن مرافقه وصديقه المفتي. وهو يزعم أن زيارتهم استغرقت ست ساعات متواصلة)[2]. ويتابع دينيه قائلًا:

---

(1) يقول دينيه في الحاشية إن روش أخذ كل تفاصيل رحلته التي سماها: أربع وعشرون مرحلة بين السويس وينبع من كتاب بوركهارت الذي لم يسلك هذه الطريق هو الآخر، وإنما ينقل وصفها من كتب الآخرين. انظر النص الفرنسي لكتاب دينيه، ص 194، وترجمة ذاكر، ص124.

(2) يقول دينيه في التعليق على هذا الموضع: «ومن جملة ادعاءاته أيضًا زعمه أنه دخل إلى الممر الكائن بين السياج والحجرة النبوية التي فيها مقام النبي ﷺ. وأنه اغتنم غفلة أحد الحراس ورفع الستارة، فأطل من نافذة صغيرة فلاحظ =

ونورد هنا الجملة التي فضح بها روش نفسه عندما أراد الزيادة عما نقله من بوركهارت في وصف الحجرة الشريفة، يقول: «يُسمى المكان الذي يحيط به السياج **الهجرة**، وسمي بذلك تذكارًا لهجرة النبي ﷺ». ويقول دينيه: (كان ينبغي على هذا المسكين أن يسأل صديقه العزيز المفتي الذي يدري من غير شك أن صواب الكلمة «حجرة» بمعنى بيت، ولا علاقة لها البتة بكلمة «هجرة» التي هي من هجر بمعنى «ترك»، ولا توجد أي مماثلة بين الكلمتين لا من جهة المادة اللغوية، ولا من جهة المعنى، ولا الكتابة حتى يقع الالتباس بينهما).

ليس من شك في أن موقف دينيه هو موقف مسلم صحيح العقيدة أزعجه الدور الذي قام به روش في التجسس على الأمير عبد القادر أولًا، وادعاؤه الإسلام لديه ثم ارتداده، كما أزعجته **الفتوى** التي كان يحملها روش، وتنص على أن الجهاد ضد الفرنسيين هو من باب إلقاء النفس إلى التهلكة. ولكن ما يذكره من ملاحظات هي ملاحظات صحيحة، وتدعو إلى الشك في روايات روش الذي يبدو أنه كتب قصة رحلته بعد زمن من رحلته، فاختلطت عليه الأمور ودخل العنصر التخييلي في كثير من رواياته. فمن هو ليون روش هذا؟

= ثلاثة قبور، أورد أوصافها حرفيًا كما جاءت عند بوركهارت. إن ما يدعيه روش مينًا وزورًا أمر مستحيل، لأنه لا توجد أي نافذة في جدار الحجرة الشريفة ولا ستار.

حياته:

ولد[1] ليون روش (حاج عمر) في غرونبل[2] (فرنسا) في 27 أيلول/ سبتمبر 1809م (1224هـ)، ودرس في مدارس مدينة غرونبل ثم في مدارس مدينة طولون[3].

---

(1) انظر عن حياة ليون روش كتاب يوسف مناصرية: **مهمة ليون روش في المغرب، الجزائر** 1990م؛ ورحلة **أدريان بير بروجر إلى معسكر الأمير في الونوغة**، باريس 1839م؛ ومقالة **مارسيل إيمريت** عنه في المجلة الأفريقية R.A 91، 1974م؛ وكتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله، **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1424هـ/ 2003م، ص322 ـ 323. وانظر بالإنجليزية:

JP. LEHMAN 1980, LÉON ROCHE-Diplomat Extraordinary in the Bakumatsu Era: An Assessment of His Personality and Policy, MAS 14: 273307.

وانظر: أكاديمية دولفينال ـ أي رجل كان ليون روش؟ [الأرشيف] على موقع Neababeloued، روجع الموقع في 4 نيسان/ أبريل 2010م.

Académie Delphinal - Quel homme était donc léon Roches? [archive] sur le site Neababeloued, consulté le 4 avril 2010.

وانظر أيضًا: **فرنسيان في الحجاز**، أ. د. أبو القاسم سعد الله، مجلة **المنهل السعودية**، الربيعان 1417هـ/ تموز/ يوليو ـ آب/ أغسطس 1996م، ص76 ـ 85؛ وبحثًا بعنوان: «رحلة ليون روش إلى الحجاز 1841 ـ 1842م»، المقدم إلى ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، المنعقدة في الرياض 24 ـ 27 رجب 1421هـ/ 21 ـ 24 تشرين الأول/ أكتوبر 2000م، ونشر في أعمال الندوة التي صدرت في سلسلة مطبوعات الدارة (133)، 1424هـ، ج1، ص247 ـ 228. وأعيد نشره مع الإشارة إلى أنه قُدِّم للندوة المذكورة في كتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله أعلاه. وانظر: كتاب **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، 1985، ص526.

(2) Grenoble: مدينة فيها مركز جامعي. وهي مدينة صناعية مهمة.

(3) Toulon: مدينة فرنسية تعد ميناء عسكريًا على البحر الأبيض المتوسط.

وشارك والده في الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م. ولما استوطن هناك دعا ولده للالتحاق به، فحل الولد فيها بتاريخ 30 حزيران/ يونيو 1832م. تعلم ليون روش اللغة العربية على الشيخ عبد الرزاق بن بسيط[1]. وخالط أهل الجزائر في المقاهي وجلسات المحاكم الشرعية، وتعرف إلى بقايا العائلات الغنية ذات النفوذ، وتولى الترجمة في الإدارة الفرنسية في الجزائر. وفي أثناء الهدنة بين الأمير عبد القادر وفرنسا طبقًا لمعاهدة التافنة (1837م)[2]، التحق ليون روش في خدمة الأمير ابتداء من 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1837م. ولازمه في حروبه الداخلية وتنقلاته واجتماعاته، وأصبح أحد كتابه الخاصين. وقد أرسله الأمير إلى من علمه الدين الإسلامي، بعد أن أعلن إسلامه، وزوجوه مسلمة. وفي سنة 1839م، توترت العلاقات بين الأمير وفرنسا من جديد، فهرب ليون روش،

(1) انظر عنه: **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

(2) تافنة أو تافنا: اسم لنهر بإقليم وهران، ينبع من جبال بني سنوس ويصب في البحر الأبيض المتوسط على بعد حوالى خمسين كلم. أطلق اسمه على المعاهدة (30 أيار/ مايو 1837م) ما بين الأمير عبد القادر والجنرال بوجو. ودامت سنتين (1837 ـ 1839)، فُقد نصها العربي فترجم الفرنسيون النص الفرنسي واعتبروه النص العربي. انظر: هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله، تونس 1974، ص 302 ـ 303؛ **ومهمة ليون روش في الجزائر والمغرب**، يوسف مناصرية، م. س، ص 72.

ورجع إلى قومه بعد أن عرف أسرار الأمير، وأعلن أنه لم يكن مسلمًا، وأصبح معروفًا أنه كان يتجسس على الأمير وأحوال المسلمين. وبعد مهمته في تونس ومصر والحجاز، تولى قنصلية فرنسا في كل من تونس وطنجة بالمغرب واليابان. وتوفي عام 1901م (1319هـ) في غرونبل. ونختم الحديث عن حياة روش بما كتبه الرحالة الفرنسي جيرفيه كورتلمون عنه في الملحق الذي أثبته في آخر رحلته، وتحدث فيه عن الرحالين الذين سبقوه إلى مكّة المكرّمة قال: (ليون روش: كبير المترجمين في جيش أفريقيا الفرنسي. أرسله المارشال بوجو في مهمة لدى شريف مكّة المكرّمة في عام 1257هـ (1841م). وكانت فرنسا حينئذٍ في معمعة الحرب الأفريقية المروعة التي لم تكن ذات فائدة للمسلمين؛ لأن مقاومتهم لم تكن مجدية أمام الإدارة الفرنسية الحازمة التي كانت تود استكمال غزوها للجزائر.

خطرت للمارشال فكرة كان هدفها إنسانيًا راقيًا. فقد راهن على حكمة رجال الدين الإسلامي، وطلب منهم فتوى تحث المسلمين الجزائريين على الإعراض عن المقاومة غير المجدية، وقبول السيطرة الفرنسية، مقابل أن تتعهد فرنسا باحترام مؤسساتهم الدينية والقضائية. وقد نجح ليون روش نجاحًا باهرًا في هذه المهمة. لقد قابل الشريف الأكبر، ووقع منه الفتوى التي صاغها علماء القيروان، وصادق عليها علماء القاهرة، ثم ذيلها بتوقيع مجلس علماء مكّة المكرّمة.

كانت رحلته محفوفة بالمخاطر ـ فهو على سبيل المثال ـ لم يستطع النجاة إلا بمعجزة حقيقية، عندما تعرّفه في مكّة المكرّمة جزائريون، كان في ما مضى قد اشترك في إصدار الحكم عليهم بصفته مترجمًا لدى السلطات الفرنسية، ثم أعلنوا على الملأ حقيقة أمره في عرفات. وفي لحظة حرجة، هي لحظة الوضوء، قام أحدهم بالتشهير به على رؤوس الأشهاد بين جماعة السكان الأصليين، فقُبِض عليه، وكُمِّم ثم حُمِل على ظهر جمل، ومُضِي به بسرعة كبيرة، وظن نفسه هالكًا لا محالة؛ ولكن حقيقة الأمر أنه أُنْقِذ، إذ أنقذه الشريف الأكبر الذي أمر بمراقبة مبعوث الجنرال بوجو عن قرب دون أن يشعر، لكي يدفع عنه أي خطر يحدق به.

إن ليون روش اليوم، بعد أن تفانى في خدمة فرنسا خلال مدة عمله؛ إذ كان على التوالي: وزيرًا مفوضًا في اليابان[1]، وفي المغرب، حيث اضطلع بمهمات جليلة، ينعم بتقاعد استحقه بجدارة. إنه عجوز صلب العود، ما زال نضرًا تبدو عليه ملامح الرياضي. وقد شرفني بحضور المحاضرة التي ألقيتها في مدينة بوردو عن رحلتي. كانت عيناه مغرورقتين بالدموع لشدة تأثره عندما سمعني أتحدث عن تفاصيل إقامتي في المدينة المقدسة؛ قال لي وهو

(1) من 1864 ـ 1868م.

يقبلني: «إنه خلال حديثي رحل بمخيلته مرة أخرى إلى مكّة المكرّمة بعد سبعة وخمسين عامًا من ذهابه إليه»[1].

عنوان كتابه:

أجمع الذين تحدثوا عن ليون روش على أن عنوان كتابه الذي يعتمدون عليه هو: **اثنتان وثلاثون سنة في الإسلام**[2]. وهو الكتاب الذي اعتمد عليه أبو القاسم سعد الله في ما كتبه عن ليون روش. ويشير يوسف مناصرية إلى كتاب آخر لليون روش ترجمة عنوانه: «**عشر سنوات في الإسلام 1834 - 1844م**»[3]. وقد تحدث كارّابي في مقدمة هذا الكتاب عن

(1) انظر، **رحلتي إلى مكّة**، جيل - جرفيه كورتلمون، ترجمة محمد الحناش، مؤسسة التراث، الرياض، 1422هـ/ 2002م، ص148؛ وقارن بما في كتاب **من رحلات الفرنسيين إلى الجزيرة العربية**، م. س، ص76 - 78.

(2) أبو القاسم سعد الله، **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، م. س، ص322.
والعنوان بالفرنسية:
Roches, Léon, *Trente deux ans à travers l'Islam,* (1832 -1864) T. 1 et 2, Paris, 1884 -1885.
وقد فضلنا أن نترجم العنوان: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، كما ورد في الطبعة الأولى، وعشر سنوات في رحاب الإسلام كما ورد في الطبعة الثانية. وجاء تعريف روش على غلافها كالتالي: وزير مفوض متقاعد، سكرتير خاص سابق للأمير عبد القادر، وكبير مترجمين سابق في جيش أفريقيا. والجزء الثاني هو المخصص حتى الصفحة 157 للحديث عن رحلة روش إلى الحجاز. وصورة المجلد الثاني التي ترجمت عنها مطبوعة في دار النشر ليبريري دو فيرمان ديدو وشركائه، باريس 1887م
LIBRAIRAIE DE FIRMIN DIDOT ET Cie, Paris, 1887, Tom second.

(3) صدر في باريس عام 1904م بمقدمة وخاتمة كتبهما كارّابي (E. S. Carraby) عند الناشر بيران وشركائه: Perrin et Cie. وجاء على غلافه التعريف بروش =

العلاقة بين الكتابين، فقال: (يتحدث روش عمّا دفعه إلى كتابة مذكراته، فيقول: إن ذلك كان بإلحاح من أسرة المارشال بوجو؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه من المستحيل أن يتحدث روش عن حياته دون أن يحكي في جانب منها عن حياة المارشال بسبب أنهما كانا مرتبطين ببعضهما كل الارتباط، ويعملان لمجد فرنسا. وظهرت المذكرات بعنوان: **اثنتان وثلاثون سنة في الإسلام** في عام 1884م. وقد رأينا أن علينا أن نعدل العنوان لأن روش لم يكتب في واقع الأمر إلا ذكريات عشر سنوات من عمره قضاها مسلمًا. وعلى الرغم من أنه كان يخطط لحكاية حياته كلها في الشرق، لكنه لم يستطع إكمالها.. . لقد تسابق القراء إلى قراءة كتاب عام 1884م وأُعجبوا به. لقد كان روش يعتقد، على خلاف أولئك المؤلفين الذين يشغلون أنفسهم على الدوام بالترويج لأدبهم، أن مهمته قد انتهت بمجرد ظهور الكتاب مطبوعًا. ولكن آخرين كانوا يذكّرون على الدوام بتلك الصفحات الفرنسية الرائعة؛ ومنهم أمير، وجنرال وكاتب كانت عظمة فرنسا فكرة مسيطرة عليه، إنه هنري دوأورليان (Henri d'Orléan)، دوق دومال (duc d'Aumale)، وكان محبًا لمن

= كالتالي: كبير المترجمين في جيش أفريقيا، سكرتير خاص سابق للأمير عبد القادر، وزير مفوض. .

Dix ans A travers l'Islam, 1834-1844, Léon Roches, Préfacé et Epillogué par E. Carraby, Perrin et Cie, Libraires-Editeurs, Paris. 1904, 1 vol. (XIV-560).

كان يسميه صديقه القديم في الحرب الأفريقية ومعجبًا به، وكان يعد بكتابة مقدمة لطبعة جديدة من ذلك الكتاب. ولكن الموت منعه من ذلك. لقد كُتبت بعض السير عن ليون روش، وكان السيد ليون باريس (Léon Paris)، الذي كان متزنًا في الاستجابة لعقله وقلبه ينوي كتابة مسرحية عن بطل كثير من المغامرات. ومهما كانت قيمة أعماله الأخرى فليس لها الأهمية نفسها التي تكتسبها المذكرات. ولما فكرنا في يوم من الأيام إعادة طبع تلك المذكرات، حاذفين منها بعض التفاصيل التي لم تعد ذات قيمة اليوم، محافظين بصرامة على ذلك الأسلوب الموغل في الذاتية، الموغل في الأصالة حتى أنه يجعلنا نحس بالحياة نفسها، قال لنا أحد جنرالاتنا المرموقين، واحد من أولئك الذين قدموا لبلادنا خدمات عظيمة، الجنرال دي غاريت (des Garets): «ليون روش رجل رائع، لقد عرّفنا بعالم ما زال حتى يوم الناس هذا مجهولًا، إنه عالم الإسلام. وإن نشر مذكراته والسعي إلى أن تسير بين الناس هو عمل وطني مدعون جميعًا لتشجيعه»[1]. توضح هذه الفقرة أن روش كان ينوي كتابة مذكراته عن ثلاثين سنة قضاها مسلمًا، ولكنه لم يكتب منها إلا ذكريات عشر سنوات صدرت في مجلدين بين عامي 1884 ـ 1885م. ولما فكر كارّابي في إعادة نشرها أصدرها بالعنوان الحقيقي عشر

(1) من المقدمة التي كتبها كارّابي لكتاب روش: **عشر سنوات في الإسلام**، م. س، ص8 ـ 10.

سنوات في الإسلام عام 1904م، بعد أن حذف منها كما يقول بعض التفاصيل التي لم يعد لها أهمية اليوم.

وقد اعتمدنا في الترجمة على طبعة عام 1887م للمجلد الثاني، ووجدنا أنه لا فوارق بين الطبعتين في القسم الخاص برحلة روش إلى الحجاز.

مذكرات ليون روش:

اقتطعنا من المذكرات ما له علاقة بالحجاز، فبدأنا الترجمة من الفصل الحادي عشر من الكتاب الأول (ص145) الذي عنونه روش «القيروان ومصر»، وانتهينا بالفصل الثاني والعشرين من الكتاب الرابع الذي عنونه روش من «جدة إلى الإسكندرية» وينتهي بالصفحة (157). ولم يطلق روش على كتابه اسم «رحلة»، وإنما قال: إنه سيسميه مذكرات، ثم عدل عن ذلك وسماه «اثنتان وثلاثون سنة في الإسلام». والكتاب في مجلدين، يقع كل منهما في أكثر من 500 صفحة. وموضوع الجزء الأول هو أوضاع الجزائر وحياة الأمير عبد القادر. وأما الثاني فمخصص لمهمته في الحجاز وحياة المارشال بوجو. وتبدأ الرحلة منذ خروجه من الجزائر باتجاه تونس، ثم إلى مصر عبر مالطا. ولكي نضع القارئ في سياق الرحلة نذكر كلمة مختصرة عن مضمون كل فصل من الفصول الخمسة من الكتاب الأول، وهي التي تسبق الفصل الذي بدأنا الترجمة به (السادس).

في الفصل الأول من الكتاب الأول من المجلد الثاني يتحدث روش عن وصوله إلى تونس قادمًا من الجزائر، وعن لقائه بقنصل فرنسا العام هناك السيد دو لوغو، وعن ارتدائه الملابس الإسلامية، وعن الأسواق والمساجد في تونس العاصمة، وعن الزاوية التيجانية، وعن الفتوى. ويتحدث في الفصل الثاني عن وصوله إلى مالطا، وعن لقائه بقنصل فرنسا فيها السيد دو فابرغيت (de Fabreguettes) الذي عرَّفه بالسيد بروسبير ميريميه (Prosper Mérimée)، قريب السيد فولجنس فرينيل، وعن رسالته الأولى إلى صديقه الكابتن فيرجيه (Vergé)، وعن وصوله إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة. وفي الفصل الثالث تحدث عن القاهرة، وعن الموظفين الأوروبيين في خدمة نائب الملك[1]. وفي الفصل الرابع يورد نص رسالته الثانية لصديقه الكابتن فيرجيه، ويتحدث عن زيارته المدارس التي أسسها نائب الملك، ويورد بعض الاعتبارات العامة عن حكومة نائب الملك وأوضاع الفلاحين. وفي الفصل الخامس يقول روش: إنه عاد إلى ارتداء الملابس الإسلامية، ويتحدث عن الشيخ التونسي، وعن مجلس الجامع الأزهر وعن الفتوى. أما الفصل السادس فهو الفصل الذي بدأت فيه الترجمة.

(1) يريد محمد علي.

الفتوى[1]:

لما قرر المارشال توماس بوجو عندما أصبح في عام 1841م حاكمًا عامًا للجزائر تكليف ليون روش بمهمة تضعف من القوة الحربية للأمير عبد القادر، وتفت في عزيمة الجهاد عند المسلمين، قامت السلطات الفرنسية باتفاق مع بعض مقدِّمي الطرق الصوفية[2] بصياغة «فتوى» شرعية تبيح لمسلمي الجزائر العيش تحت الحكم الفرنسي/ المسيحي، إذا احترمت مؤسساتهم الدينية والقضائية، وتدعوهم إلى ترك الجهاد الذي يعد حينئذٍ إلقاء النفس إلى التهلكة. ولكي يكون لتلك الفتوى أثرها في نفوس الجزائريين رأى الذين صاغوها ضرورة موافقة أعيان المسلمين عليها[3]. وقد أصدر الجنرال بوجو التعليمات إلى قناصل فرنسا في تونس والقاهرة وجدة لتسهيل مهمة

(1) اقتبسنا هذه الفقرة والتي تليها والتعليق عليهما من كتاب أبو القاسم سعد الله، **بحوث في التاريخ الإسلامي**، م. س، 323 ـ 327 مع بعض التصرف في الصياغة.

(2) ذكر روش أن الطريقة التي تعاونت معه في إنجاز مشروعه هي: التيجانية. وقد استغل الفرنسيون الخلاف الذي كان بين شيخها محمد الصغير والأمير لمصلحتهم. وبناء على وثائقهم فإن هذه الطريقة ظلت صديقة لهم طيلة العهد الاستعماري، ولكنها لم تكن الطريقة الوحيدة.

(3) أراد الفرنسيون أن يكسبوا موافقة المراكز الدينية المسموعة الكلمة عند المسلمين الجزائريين على الفتوى مثل: القيروان، والأزهر والحرمين. فرشحوا روش للقيام بهذه المهمة، وعينوا معه بعض من ينتمون إلى الطرق الصوفية تغطية له، وقد ذكر روش أسماءهم في مذكراته؛ ومنهم ميلود بن سالم الأغواطي، ويحيى البوزيدي (الجزائر) وعبد الله بن محجوب (تونس) وغيرهما.

روش، كما وضع تحت تصرفه كمية من النقود الذهبية (السلطاني) ليوزعها عند الحاجة على العرب الذين قال عنهم: إنهم يحبونها كثيرًا[1].

مرافقو روش ومساعدوه:

ذكر روش أن شيخ الزاوية التيجانية في عين ماضي[2]، محمد الصغير التيجاني[3] دعا إلى اجتماع حضره أيضًا مقدِّمو الطريقة الطيبية[4] والطريقة الشيخية[5] وغيرهم.

---

(1) ركز روش كثيرًا على أهمية النقود (الرشوة) لشراء الذمم من أجل الحصول على موافقة المؤسسات الدينية على الفتوى، وقد أعطاه بوجو المال اللازم حسب دعواه.

(2) بلدة في جنوب غرب الجزائر، وهي مسقط رأس الشيخ أحمد التيجاني، مؤسس الطريقة التيجانية المعروفة، وكانت هي المقر الرئيسي لتلك للزاوية المذكورة.

(3) توفي سنة 1853م، وكانت له شخصية قوية، وهو أحد أبناء الشيخ أحمد التيجاني، والأغلب أنه ولد بالمغرب التي التجأ إليها والده هربًا من مضايقات العثمانيين في الجزائر. وبعد وفاة والده جاء بهم (هو وإخوته) الحاج علي التماسيني ليرعاهم ويحضرهم للمسؤولية، وهي قيادة الطريقة. وفي عام 1838م هاجم الأمير عبد القادر عين ماضي، وأخرج منها الشيخ الصغير. ويبدو أن الشيخ كان على استعداد للتعاون مع الفرنسيين ضد الأمير كما تشير رحلة ليون روش ومراسلات المارشال فاليه، انظر:
Yver, Georges, Correspondance du Maréchal Valée, des possession Françaises dans le Nord de l'Afrique, Paris, 1954.

(4) كان مقرها مدينة وزان في المغرب، لذلك تسمى أحيانًا بالوزانية، وترجع إلى أصول شاذلية، وقد تحولت مع الزمن فأصبح رجالها من مؤيدي الفرنسيين في الجزائر، واعتمد هؤلاء على نفوذ الطريقة في الصحراء فاستفادوا منها.

(5) نسبة إلى الشيخ عبد القادر بوسماحة، وهي طريقة وقبيلة (عشيرة) في الوقت نفسه. ويقال إن أولاد سيدي الشيخ من نسب الخليفة أبي =

واتفقوا على صيغة الفتوى، وعلى حملها إلى علماء القيروان وعلماء الأزهر وعلماء الحرمين الشريفين للموافقة عليها[1]. وقد عين الشيخ محمد الصغير مقدَّمَيْن من رجاله لمرافقة روش في مهمته؛ هما: ميلود بن سالم الأغواطي، ويحيى البوزيدي. كما كتب رسائل إلى مقدَّميْه في تونس لتسهيل مهمة روش، أحدهما الشيخ عبد الله بن محجوب[2]. أما في القاهرة فقد التقى روش بالشيخ حسن بن إبراهيم التونسي، الذي كان مفتيًا في القيروان، وهذا الشيخ هو الذي لازمه روش إبَّان رحلته في الحجاز، وكان يقلده في أداء الشعائر الدينية، ويشير إليه دائمًا باسم المفتي. وكان متقدمًا في العمر وترافقه زوجته. وكان مقيمًا في القاهرة عند صهره الذي يسميه روش «الشيخ التونسي»، وهو

= بكر الصديق رضي الله عنه. وهم يشكلون اتحادية ضخمة يمتد أغلبها داخل حدود الجزائر الغربية، كما كان لها فروع داخل حدود المغرب الشرقية أيضًا.

(1) انظر: **الرحلة**، مج2، ص 5 ـ 15.

(2) مقدم الزاوية التيجانية في القيروان، وهو الذي تسلم رسالة الشيخ محمد الصغير لتقديم روش إلى الجهات المعنية. وهو الذي جمع علماء القيروان في جامع عقبة بن نافع للحصول على موافقتهم على نص الفتوى التي حملها روش. وكان لابن محجوب كاتب خاص يدعى سيدي عمر بن والي، وكان الاثنان يعرفان حقيقة روش (فرنسي متنكر). أما العلماء فقد قيل لهم إن روش من أسرة سيدي العريبي (غرب الجزائر) التي عاقب الأمير عبد القادر زعيمها. انظر **الرحلة**، مج2، ص10.

على ما يبدو الشيخ محمد بن عمر التونسي[1] مؤلف كتاب **تشحيذ الأذهان**[2] الذي كان مخالطًا الفرنسيين في مصر. وكان الرجلان التونسيان يعتقدان بصحة إسلام روش، فعلمه الشيخ التونسي اللغة العربية الفصحى، ووجهه المفتي إلى التعمق في علوم الدين، وذلك إبَّان إقامته بالقاهرة في طريقه إلى الحج. والمعروف أن روش قد تسمى منذ دخل في خدمة الأمير عبد القادر باسم عمر بن عبد الله[3]. ومن العلماء الذين ذكرهم روش في مصر من يسميه الشيخ القادري، وقال: إنه الوحيد الذي عارض الموافقة على الفتوى عند اجتماع علماء الأزهر، لأنه كان من

---

(1) كان يعمل مع البعثة الفرنسية في مصر، وقد تعرف هناك إلى الدكتور بيرون الذي ترجم كتاب التونسي **تشحيذ الأذهان**... إلى الفرنسية. انظر عنه تاريخ عبد الحميد بيك، تراجم من المشارقة والمغاربة، تحقيق د. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م.

(2) عنوانه الكامل: **تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان**، ط. حجرية، القاهرة 1267هـ، ثم بتحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1962م. والغالب أن وضع الكتاب كان بإيعاز من الفرنسيين الذين كانوا في منتصف القرن التاسع العشر الميلادي مهتمين بالسوادين عمومًا. انظر بحث د. أبو القاسم سعد الله، «المترجمون الجزائريون وأفريقيا»، مجلة **الثقافة الجزائرية**، ع113، 1996.

(3) انظر: **الرحلة**، مج2، ص55، إذ يذكر روش أنه قال للأمير إن أهل مدينة الجزائر كانوا يسمونه (عمر)، وقال: إن الأمير وافقه على ذلك لأن الخليفة عمر رضي الله عنه اعتنق الإسلام أيضًا، وحثه على الاقتداء به. أما اسم عبد الله فلم يشر حسب علمنا إلى أصل إضافته لاسمه.

الطريقة القادرية التي ينتمي إليها الأمير عبد القادر، وأنه كان صديقًا لمحيي الدين، والد الأمير، الذي يعرفه منذ عام 1827م عندما مرا (الوالد والولد) بالقاهرة في طريقهما إلى الحج[1]. ولم يذكر روش اسم أي عالم من علماء الأزهر، وإنما قال: إن الذي ترأس الاجتماع هو إمام الجامع الأزهر، وأن الذي قدم الفتوى للمجلس هو الميلود بن سالم. كما أن روش لم يذكر أسماء علماء الحرمين الذين اجتمعوا في الطائف بدعوة من الشريف[2]، باستثناء الشيخ محمد بن علي السنوسي[3]. وإن كل ذلك يثير الشكوك حول صدقية روايات ليون روش.

أما الفرنسيون الذين سهلوا مهمة ليون روش فنذكر منهم، ناهيك بالمارشال بوجو، فولجنس فرينيل (Fulgence

(1) حج الشيخ محيي الدين وابنه الأمير عبد القادر عام 1827م بعد أن كانت السلطات العثمانية قد اعتقلتهما، ومنعتهما من ذلك خوفًا عليهما كما ادعت. وقد مرا في أثناء الرحلة بالقاهرة، واحتفى بهما محمد علي باشا والي مصر باعتبار الشيخ من العلماء والمتصوفة؛ وهي عادة كانت جارية حينئذٍ. وقد رجعا من الحج عام 1828م، ولم يلبثا قليلًا حتى احتلت فرنسا الجزائر عام 1830م.

(2) كان العلماء يجتمعون سنويًا في موسم الحج في الطائف عند الشريف محمد بن عون.

(3) مؤسس الطريقة السنوسية، ولد قرب مستغانم (الجزائر)، درس في فاس، ثم هاجر إلى الحجاز، واستقر بليبيا. انظر ترجمته في الجزء الرابع من **تاريخ الجزائر الثقافي** للدكتور أبو القاسم سعد الله.

(Fresnel[1]، قنصل فرنسا في جدة الذي كان يقيم مؤقتًا في القاهرة. وكان فرينيل يعرف شريف مكّة محمد بن عون معرفة جيدة حسبما يدعي روش، ويعده صديقًا له؛ لذلك كتب له رسالة تزكية قوية تتعلق بمهمة ليون روش، فلقي هذا الأخير ترحيبًا كبيرًا، بل نجا من الموت بفضل عناية الشريف به. واستفاد روش في القاهرة من خبرة الدكتور بيرون (N. Perron)[2]، مدير مدرسة الطب بالقاهرة، ثم مدير المعهد العربي ـ الفرنسي في الجزائر. وقد لقي أيضًا مساعدة من القنصل الفرنسي في تونس دو لاغو (de Lagau)[3] الذي كان مكلفًا بتسهيل مهمة روش في تونس ومالطا. وقد ادعى روش أنه ثالث مسيحي يدخل مكّة بعد الإسباني دومنغو باديا لبليخ (المشهور بعلي باي

(1) فولجنس فرينيل: ولد في عام 1795م وتوفي عام 1855م في بغداد. اهتم بالعلوم والأدب واللغات، ترجم من عدة لغات إلى الفرنسية، واهتم بدراسة اللغة العربية وتاريخ العرب على وجه الخصوص. كان قنصلًا في القاهرة عام 1837، ثم في جدة. عاد إلى باريس بسبب وضعه الصحي. وفي عام 1851م غادرها على رأس البعثة التي كلفتها الحكومة الفرنسية باستكشاف آثار بلاد الرافدين. وعندما جرى استدعاء البعثة ظل هو في بغداد حتى وفاته. احتوت المجلة الآسيوية على أهم أعماله، وخصوصًا رحلته المعنونة: «الجزيرة العربية كما رأيتها في عام 1837 ـ 1838م».

(2) انظر عنه: **المستشرقون**، نجيب العقيقي، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1980م؛ وبحثًا للدكتور جمال الدين الشيال بعنوان: «دكتور بيرون والشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد بن عمر التونسي»، **مجلة كلية الآداب**، جامعة فاروق الأول، مج2

(3) انظر عنه **الرحلة**، مج2، ص6.

العباسي)[1] سنة 1807م، والإنجليزي جون بوركهارت[2] سنة 1814م.

تعد مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الجزيرة العربية، على الرغم مما يعتورها من شكوك، وما تحتويه من أخطاء، مصدرًا مهمًا من مصادر التاريخ الحديث، للجزائر وتونس ومصر والحجاز. وإن الصفحات التي خصصها للجزيرة

---

(1) ولد في برشلونة سنة 1180 (1766م)، وبدأ رحلته في عام 1218هـ/ 1803م من مدريد إلى المغرب، فطرابلس الغرب، فقبرص، فمصر فمكّة المكرمة لأداء فريضة الحج. وعاد إلى بلاده عام 1223هـ/ 1808م. وقد وصل إلى مكّة المكرمة وهي تحت حكم السعوديين فكان شاهد عيان على الأحداث. توفي عام 1233هـ/ 1818م بينما كان في صدد إنجاز رحلة استكشافية ثانية إلى بلدان المشرق لحساب فرنسا.، ودُفن في حصن البلقاء (جنوب شرق الأردن). وقد ترجم القسم الخاص بالجزيرة العربية بعنوان «رحالة إسباني في الجزيرة العربية، رحلة دومنغو باديا (علي باي العباسي إلى مكّة المكرمة) سنة 1221هـ/ 1807م»، ترجمه ودرسه وعلق عليه د. صالح بن محمد السنيدي، دارة الملك عبد العزيز 1429هـ/ 2008م. انظر مقدمة الترجمة، وكتاب من **رحلات الفرنسيين إلى الجزيرة العربية**، م. س، ص10 ـ 11.

(2) هو الرحالة السويسري جون لويس بوركهارت، ولد عام 1748م في لوزان (سويسرا) وتوفي في القاهرة عام 1817م. تعلم العربية في بريطانيا وتجنس بجنسيتها، كما درسها في حلب أيضًا. قرأ القرآن وتفقه في الإسلام واعتنقه وتسمى إبراهيم بن عبد الله، وحج واكتشف آثار البتراء. انظر نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ج2، ص52، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1980م. وترجم رحلته إلى الجزيرة د. عبد العزيز بن صالح الهلابي وعبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1413هـ/ 1992م. وترجمها كاملة فيصل أديب أبو غوش، ونشرتها وزارة الثقافة في المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 1993، ط2، 2005م في جزءين. وانظر كتاب: **من رحلات الفرنسيين إلى الجزيرة العربية**، د. محمد خير البقاعي، م. س، ص 100 ـ 101 الهامش 149.

العربية صفحات مفيدة تبحث عن المعالم والبشر، وعرَّض نفسه لأخطار جمة كادت تودي بحياته. وتحدث كذلك عن المسالك والمحطات، واتصل بعدد كبير من الأشخاص على اختلاف مناصبهم ومشاربهم. وضمن رحلته رأيه في كثير من القضايا السياسية والاجتماعية، كان في بعضها مبالغًا، ولكن المبالغة في مثل هذه الأعمال هي وسيلة من وسائل التعبير عن المشاعر، ونقل الأخبار والحوادث التي تسترعي انتباه القارئ.

حاولنا أن تكون هذه الترجمة بأسلوب سهل بعيد عن الغرابة والغموض. وعلقنا على ما رأينا أنه بحاجة إلى ذلك. وكل ما نرجوه في الختام أن يكون هذا العمل مفيدًا للعلم بما يحتويه من معلومات ثرة، ووصف جميل، وغير ذلك من جوانب الحياة في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. وأشكر لدار جداول وللقائمين عليها اهتمامهم بنَشْر مثل هذه الأعمال التي تخدم تاريخ هذه البلاد، وتاريخ الأحداث التي دارت على أرضها. كما أشكر للأستاذ فايز البدراني الحربي قراءته القسم الأول من هذه الترجمة وتعليقاته المفيدة عليه. وللأستاذ الدكتور أحمد مطر لعطية قراءته التجربة النهائية لهذه الطبعة. ولا نجد نهاية لهذه المقدمة أجمل من مقطع من رسالة العلامة فولجنس فرينيل إلى ليون روش، يقول فيه:

«... حتى أعذرك لأنك لم ترسل إليَّ بعد حكاية رحلتك، وهي إحدى أهم الرحلات التي أقدَمَ عليها

أوروبيّ، تتذرع بضياع ملاحظاتك. أقول تتذرع، لأنه، بوجود ذاكرة قوية كالتي لديك، يمكننا أن نستغني عن ما دونته من ملحوظات. حسنًا، من الآن فصاعدًا، لن تجد أبدًا حجّة أو عذرًا لتقدّمه، طالما، تزامنًا مع هذه الرسالة، سيقوم سيد الحاج محمد المزاري الذي نصحتني باللجوء إليه، بإعادة ملابسك، وأسلحتك، وكتبك العربية، وجميع أوراقك بعد أن سلّمها رفيقك المفتي سيد الحاج حسن، فور عودته من مكّة، بحرصٍ شديد إلى صهره الشيخ تونسي، الذي أحضرها لي وهو يكاد يطير فرحًا.

لا بدَّ أنكم نِلتم بعضًا من جاذبيتكم من شفاعة أحد الأولياء المغاربة الكبار، لأنكم أسَرتم، بل يبدو أنكم سحَرتم عن طيبة خاطر، جميع المسلمين الذين عرفوكم في القاهرة وفي مكّة. أجابني صديقي الشريف الأكبر ابن عون، الذي شكرته بحرارة لأنه تمكَّن من انتشالكم من ميتة شنيعة، إنه يعدّ تدخله في هذا الظرف واحدًا من خيرة الأعمال التي قام بها في حياته. أدعو الله تعالى، قلتُ لنفسي في نهاية رسالته، أن يمنَّ علينا بلقاء نجتمع به وصديقك في ساعة ميمونة».

محمد خير البقاعي

الرياض المحروسة 11/ 3/ 1432هـ

الكتاب الأول

القيروان ومصر

الفصل السادس

- عزمتُ على الذهاب إلى مكّة
- استعدادات
- السيد الحاج حسن، زوج أخت الشيخ تونسي
- رسالتي إلى المارشال بوجو

إذًا، لقد التزمت التزامًا جادًا بالذهاب إلى مكّة، ولما كان مقدم[1] التيجاني قد صرّح أمام مجلس الأزهر أن شيخه يرغب في أن يسبغ على الفتوى[2] التي أصدرها علماء

(1) المقدم: درجة في التصوف، وهو الشخص الذي يختاره الشيخ لينوب عنه ويمثله. والتيجاني هو محمد الصغير المتوفى سنة 1853م، وهو أحد أبناء الشيخ أحمد التيجاني، كانت له شخصية قوية، والغالب أنه ولد في المغرب التي التجأ إليها والده من مضايقات العثمانيين له في الجزائر. وبعد وفاة والده جاء به هو وإخوته الحاج علي التماسيني ليرعاهم ويحضرهم للمسؤولية، وهي قيادة الطريقة. وفي سنة 1838م هاجم الأمير عبد القادر عين ماضي وهي مقر الزاوية التيجانية، وأخرج منها الشيخ محمد الصغير المذور. ويبدو أن الشيخ كان على استعداد للتعاون مع الفرنسيين ضد الأمير كما تشير رحلة ليون روش، ومراسلات المارشال فاليه. عن الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه: **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، م. س، ص324 في الحاشية.

(2) وهي فتوى تبيح للجزائريين المسلمين العيش تحت الحكم الفرنسي/ المسيحي، وتجعل الجهاد ضدهم من باب إلقاء النفس إلى التهلكة، كما =

القيروان والقاهرة أقصى قدر ممكن من الشرعية، وإنه ـ تنفيذًا لأوامره ـ عازم على الذهاب إلى مكّة ليعرض هناك تلك الفتوى على مجلس أعلى، مؤلَّف من علماء المشرق والمغرب الذين يجتمعون في المدينة المقدسة، بمناسبة الحج للمصادقة عليها. لم يكن ذلك القرار الذي كنت قد خططت له على أي حال منذ مغادرتي الجزائر مصدر إزعاج لي، بل كان على العكس يوافق رغباتي.

هل كانت جذوة الرغبة في أن ألقى حتفي في أثناء أداء مهمتي لا تزال متقدة في نفسي، كما كانت أيام كنت أسعى إليها؟ ينبغي أن أقرّ أن تبدلًا كبيرًا طرأ على أفكاري منذ أن غادرت الجزائر. لئن كنتُ قد عقدتُ العزم على ألا أعود البتة إلى هذا البلد الذي عانيت فيه الأمرين، هذا البلد الذي واجهت فيه وضعًا مريعًا استطعت النجاة منه. لقد كنت أنظر إلى المغامرة نظرة أقل سوداوية. وقد ترك الاستقبال الرائع والودي الذي قوبلت به في مالطا ومصر، والاحتكاك بأشخاص مميزين خالطتهم هناك، أثرًا طيبًا في طبعي الذي يتأثر بسهولة بمثل هذه الأمور. ودون أن يكون لدي أي تصور مسبق عن مشاريعي المستقبلية، أصبحت من الآن فصاعدًا أرى أن مهمتي هي وسيلة للقيام برحلة

= تجعل حركة المقاومة التي كان يقودها الأمير عبد القادر حركة غير شرعية. انظر كتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله المذكور أعلاه، ص322، و324.

ذات فائدة استثنائية، وإنجاز لمهمة في غاية الأهمية، وليس مجرد وسيلة أتخلَّص بها من الحياة التي كانت تبدو لي حتى عهدٍ قريب عبئًا لا يحتمل.

سيحكم الناس بالتأكيد بقسوة بالغة على كل هذه المواربات التي تولَّدت من مخيلتي وعقلي الفاسد، حسبما أراه؛ لكن، كما سبق أن ذكرت في تمهيدي، أما وقد عقدتُ العزم على أن أقدِّم نفسي إلى أبناء بلدي، أود أن يروني كما كنت في الماضي، وكما أنا عليه الآن. كما أن بوسع أخطائي أن تصبح دروسًا مفيدة لمن سيقرأني. كان ينبغي إذًا أن أنصرِف دون تأخير إلى الاستعداد لرحلتي إلى مكّة.

فكرتُ بدايةً بالالتحاق بصفة حاج فقير بالقافلة الكبيرة التي تغادر القاهرة في رحلة تستغرق ستين يومًا؛ لكن أصدقائي أقنعوني بالعدول عن هذا المشروع، لأنه لن يمكِّنني من الوصول إلى مكّة إلا قبل يومين من بدء شعائر الحج. وبناءً عليه، قد لا أجد متسعًا من الوقت لأقدِّم رسالة السيد فرينيل[1] إلى الشريف الأكبر، ولأزور العلماء الذين سيقرون الفتوى إقرارًا نهائيًا.

جعلني هذا الظرف ألجأ إلى صديقي الحكيم الشيخ

---

(1) فولجنس فرينيل: قنصل فرنسا في جدة، وقد كان يقيم في القاهرة مؤقتًا. وقد كتبه الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه السابق ذكره، ص 326 فريسنيل وهذا غير مطابق للفظ الفرنسي الذي ينبغي أن يكون بإسقاط السين.

تونسي[1]. ولا أملك إلا أن أبدي غبطتي، كما سنرى لاحقًا، لأني عملتُ بنصائحه؛ كان يمتلك موهبة استنباط تدابير تلائم مصالحه، وتسهِّل إتمام مهمتي، في الوقت ذاته. ومن قبيل الحظ السعيد أن صهره السيد الحاج حسن بن إبراهيم[2]، مضيفي، كان يحج في هذا العام أيضًا برفقة زوجته وعبيده، وهم زنجيان وزنجيتان من دارفور. أفهمني أستاذي العالم برفق أنني لن أجد فرصة أفضل من تلك، وحرّرَ اتفاقًا يلتزم صهره بموجبه بقبولي في قافلته الصغيرة، وبإطعامي، وبإقامتي، وغسل ملابسي طيلة مدة رحلتنا إلى

(1) قال الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه: **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، م. س، ص 325: يبدو أنه الشيخ **محمد بن عمر التونسي** مؤلف كتاب (**تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان**). كان يعمل مع البعثة الفرنسية في مصر، وقد تعرف إلى الدكتور بيرون هناك، وهو الذي ترجم كتابه **تشحيذ الأذهان** إلى الفرنسية. انظر عنه **تاريخ عبد الحميد بيك** (تراجم من المشارقة والمغاربة، تحقيق. د. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م. وطبع كتاب **تشحيذ الأذهان** طبعة حجرية، القاهرة 1267هـ، وطبع بتحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1962م. والغالب أن الكتاب وضع بإيعاز من الفرنسيين الذين كانوا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي مهتمين بالسوادين عمومًا. انظر بحث الدكتور أبو القاسم سعد الله: «المترجمون الجزائريون وأفريقيا»، مجلة الثقافة الجزائرية، 1996، عدد 13.

(2) حسن بن إبراهيم التونسي الذي كان مفتيًا بالقيروان، التقى به روش في القاهرة، ولازمه في أثناء رحلته، وكان يقلده في أداء الشعائر الدينية ويشير إليه على الدوام باسم المفتي. وكان متقدمًا في السن وترافقه زوجته.

مكّة وإقامتنا فيها، حتى انتهاء شعائر الحج، على أن أدفع نصف قيمة النفقة الإجمالية التي تستلزمها المواصلات، والإقامة، والغسيل، والطعام لي، وللمفتي، وزوجته، والعبيد الأربعة.

كان عليَّ أن أدفع ثمنًا باهظًا لقاء الخدمات التي سيسديها إليّ شريكي في الرحلة؛ لكن لقب المفتي والحاج، ومعرفته بالبلد وبشعائر الحج كانت كذلك شروطًا من شأنها تسهيل إنجاز مهمتي. وقد كنت ناهيك بما سبق أجد في رفقته ورفقة زوجته الطيبة ما يُفرِج عني غمي، ويعوّضني عن الفراغ الذي سيتركه خادمي الطيب إيزيدور الذي احتفظ به السيد فرينيل، عندما ذهبت للإقامة عند المفتي، وقد كنت عزمت على ألا أصطحبه معي .

كتبتُ حينئذ الرسالة التي توجّهتُ فيها إلى قائدي الفاضل الجنرال بوجو، الحاكم العام للجزائر، أقدِّم في ما يلي نسخة عنها :

القاهرة،

10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1841

سيدي الجنرال،

تسلَّمتُ الرسالة العطوفة التي وجهتها إليّ، واستلمت الحوالة التي تضمَّنتها، وقدرها أربعة آلاف فرنك. وصل هذا المبلغ في الوقت المناسب لأضمنَ سلامة نية علماء

القاهرة، الذين كان ينبغي عليَّ إقناعهم بحجج لا يمكن مقاومتها، كما كان الأمر مع علماء القيروان. لقد تمكَّنتُ في آخر المطاف من إنجاز القسم الأكبر من المهمة التي شئت أن تعهد بها إلي. لقد أقرَّ المجلس الأعلى للأزهر المؤلَّف من جهابذة الدين الإسلامي فتوى مجلس القيروان التي أرسلتُ إليك فحواها في رسالتي من سُوسة، المؤرّخة في (آب/أغسطس، 1841م).

إن سيدي محمد التيجاني ومقدم مولاي الطيب[1] سيطلعان على تلك الفتوى المهمة، ربما قبل أن تصِل رسالتي إليك، إذ ليس بخافٍ عليك السرعة الخارقة التي تنتقل بها الأخبار بين المسلمين على الرغم من عدم وجود بريد نظامي. وما من شك في أنهم سينشرونِ تلك الفتوى المهمة في جميع أرجاء الجزائر، وسيُحدِث ذلك، في رأيي، تأثيرًا بالغًا في قرارات القبائل الجزائريّة، وستتحقَّق عمَّا قريب من نتائجها الطيبة. كان يمكنني والحالة هذه الاكتفاء بالنتيجة التي حصلت عليها والعودة إلى رحابك، سيدي الجنرال؛ لكن، عليَّ أن أعترف لك اليوم أنني حين

(1) يبدو أنه أحد مشايخ الطريقة الطيبية التي كان مقرها مدينة وزان بالمغرب، لذلك تسمى أحيانًا بالوزانية، وترجع إلى أصول شاذلية، وقد تحولت عبر الزمن فأصبح رجالها من مؤيدي الفرنسيين في الجزائر، واعتمد هؤلاء على نفوذ الطريقة في الصحراء واستفادوا منها. انظر كتاب: **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، م. س، ص324 ـ 325.

رجوتك أن تعهد إليَّ بالمهمة التي تفضلت بالموافقة عليها، كنت مدفوعًا برغبة مزدوجة في أن أسدي خدمة لبلدي، وفي أن أبتعد عن الجزائر إلى الأبد لأن وضعي فيها، بسبب ما حل بوالدي من أحداث مؤسفة لا يستحقها. لذلك قررت أن أمضي في مهمتي إلى نهايتها.

إذا تمكَّنتُ من رفد فتوى القيروان التي أقرَّها علماء القاهرة بإقرار من شريف مكّة الأكبر، وجهابذة المراكز الدينية في المدينة، ودمشق، وبغداد فسيكون لها تأثير أكبر في نفوس مسلمي الجزائر. هذا هو الهدف الذي أصبو إلى بلوغه بذهابي إلى مكّة.

أنوي، فضلًا عن ذلك، القيام بمهمة إنسانيّة بعد أن ثبت لدي أن حُجّاجنا الجزائريين يُحشَرون كالماشية الوضيعة في المراكب التي تقلّهم إلى موانئ عديدة على البحر الأحمر، كميناء السويس، والقصير، وينبع، وجدَّة، سواء في الذهاب أو في الإياب. وسأكون شاهد عيان على الممارسات البربرية التي تمارسها عليهم السلطات التركيّة والمصريّة. وآملُ أن تكفي احتجاجات ممثلينا الدبلوماسيين الموجَّهة إلى الباب العالي ونائب الملك، المُدعَّمة بوقائع لا يمكن دحضها، والتعليمات التي يتلقاها موظفونا القنصليون في مصر وجدّة، لوضع حدٍّ لهذا الوضع الذي يمسّ هيبة فرنسا.

تُحدِقُ أخطار جسيمة برحلتي إلى مكّة، وليس من

المستبعد أن أواجه الموت فيها. ولكنني على كل الأحوال عقدتُ العزم على ألا أعود إلى الجزائر ما حييت.

إذًا، سيدي الجنرال، سأرحلُ وأنا على يقين أنني لن أرى بلادي مجددًا، ولن أراك، ولن أرى والدي الرائع الذي أعهد به إلى عطفك الذي طالما غمرتني به في ما مضى.

أتوجَّه إليك برجاءٍ أخير، وهو أن تتفضل بقبول «سالم» الجميل (الحصان الذي منحني إياه الأمير عبد القادر) تذكارًا من مترجمك الشقي.

لقد تكفَّلَ قنصل فرنسا في القاهرة بإعادة خادمي إيزيدور إلى الجزائر، وليس بخافٍ عليك تفانيه وأمانته. سأرحل دون أن أُطلِعَه على هدف رحلتي، لأنه قد يرغب في اللحاق بي. ولو قبِلت بذلك، قد لا أدفعه فقط إلى موتٍ محتَّم، بل سيكون أيضًا عائقًا جديدًا يحول دون إتمام مهمتي. وأسمح لنفسي أيضًا بأن أعهد به إلى حمايتك العطوفة.

وداعًا مجددًا، سيدي الجنرال.

تفضل بقبول... إلخ... إلخ.

الفصل السابع

- استعدادات رحلتي إلى مكّة
- أفارق إيزيدور
- مغادرة القاهرة
- الالتحاق بقافلة حسن بن علي في عجرود[١]

لمَّا كنت أحرص على الوصول إلى مكّة قبل شعائر الحج بوقت كافٍ، ليتسنى لي تقديم كتب التوصية التي زودني بها الأمراء الأحباش أصهار الشريف الأكبر والسيد فرينيل، وللاتصال بالعلماء الذين كان عليهم المصادقة من جديد على الفتوى التي صدرت من القيروان ووافق عليها علماء الأزهر في القاهرة، وجب عليّ أن أُعجِّل بالانطلاق، وأن أختار الوسائل التي تضمن سرعة الوصول في أفضل الشروط. ولتحقيق ذلك كنَّا مخيرين بالذهاب إلى السويس أو إلى القصير لنُبحِر من هناك إلى جدّة. لكن شريكي في الرحلة كان يصرّ على الذهاب إلى المدينة التي

(1) موضع قديم، غرب مدينة السويس، فيه قلعة تسمى قلعة عجرود، من أهم محطات الحج المصري مما يلي الحجاز. انظر **مجلة العرب**، س2، ص224 ـ 539، وص 839.

كان له معارف فيها، ناهيك بنفوره من ركوب السفن الرديئة التي تعبر البحر الأحمر. كنتُ أرغبُ، ربما أكثر من المفتي، في زيارة المدينة التي دفن بها نبي المسلمين.

اتفقنا والحالة هذه مع الشيخ تونسي ومع رفيق طريقي على الانضمام إلى قافلة أولاد بن علي، وهي قبيلة كبيرة تسكن الساحل الممتد بين درنه والإسكندرية (سيرينيكا قديمًا) بدلًا من انتظار قافلة الحج المصري الكبيرة التي تغادر القاهرة رسميًا في السابع والعشرين من شهر شوال من كل عام (الذي وافق هذا العام الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر عام 1841م)، ولا تصل مكّة إلا قبل يومين من بدء شعائر الحج. أما قافلة أولاد بن علي فتستغرق رحلتها من قلعة عجرود حيث كان علينا أن نلتحق بها، إلى ينبع؛ وهي أقرب نقطة إلى المدينة، إذ تبعد 25 أو 26 يومًا. وبناء على ذلك اتصل المفتي بوكيل أولاد بن علي في القاهرة. وتعهد ذلك الوكيل بأن يختار لنا مقوِّمًا. والمقوِّم هو أشبه بمتعهد الحج الذي يقوم، لقاء مبلغ يُتَّفق عليه مسبقًا بتأجير الحجاج الجمال اللازمة لنقلهم وأمتعتهم، ويتكفّل بتزويدهم بالطعام والماء طوال مدة الرحلة.

وعقدنا بهذا الخصوص اتفاقًا أمام القاضي، التزمَ المقوِّم بموجبه تأجيرنا اثني عشر جملًا تنقلنا من القاهرة

إلى ينبع، وبتزويدنا بالماء والطعام في أثناء الرحلة لقاء مبلغ قدره 380 دولارًا، أي ما يعادل 2000 فرنك تقريبًا، وافقتُ على دفع ثلثيه.

كان علينا الالتحاق بقافلة أولاد بن علي عند قلعة عجرود، وهي قلعة صغيرة تبعدُ تقريبًا حوال 75 ميلًا عن القاهرة؛ وتعدُّ واحدةً من المحطات الرئيسية للقوافل المتّجهة إلى مكّة.

ودّعتُ صديقي الفاضل السيد فرينيل والسيدين بيرّون (Perron)[1] ودو كينسونّا (De Quinsonnas)[2]، وهما الأوروبيان الوحيدان اللذان أطلعتهما على مشروع رحلتي إلى مكّة. أوصيتهما بخادمي الشجاع إيزيدور الذي أخفيتُ عنه هدف رحلتي؛ كان عليهم إعلامه بالحقيقة بعد مرور بضعة أيام فقط على رحيلي، وتركت له مبلغًا من المال يكفي لدفع نفقات إقامته في القاهرة وعودته إلى الجزائر ويزيد. وتركتُ في حوزة إيزيدور ملابسي الأوروبية كلها،

(1) مدير مدرسة الطب بالقاهرة، ثم مدير المعهد العربي الفرنسي في الجزائر. كان يتقن العربية، كتب عن حياة المرأة العربية منذ العصر الجاهلي، ويعد من المستشرقين. انظر نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ط4، دار المعارف القاهرة، 1980م، وجمال الدين الشيال «دكتور بيرون والشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد بن عمر التونسي»، **مجلة كلية الآداب**، جامعة فاروق الأول، المجلد الثاني، عن كتاب: **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، م. س، ص 327.

(2) لم أجد له ترجمة.

ودفاتر ملاحظاتي، وأسلحتي وبعض الأشياء القيّمة نسبيًا، وهي أشياء كان عليه أن يسلمها إلى والدي.

استأذنتُ أستاذي الجليل الشيخ تونسي بالانصراف، وقد زود الشيخ زوج أخته برسائل توصية قيِّمة موجَّهة إلى شخصيات في ينبع، والمدينة، ومكّة. وكنت أنا نفسي أحمل رسالة من السيد فرينيل إلى الشريف الأكبر الذي سبق له أن تلَّقى توصية مباشرة بي من أصهاره الأمراء الأحباش الشباب الذين كنت قد التقيتُ بهم في منزل صديقي .

أخيرًا، غادرتُ القاهرة في السادس من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1841م برفقة السيد الحاج حسن، وزوجته، وخادمتيه، وخادميه، والسيد مِيلود بن سالم الأغواطي[1]، ومُقدَّم التيجاني[2] مع خادمه. غادرناها على جمالنا الاثني عشر ومُقوِّمنا البدويّ الذي كان قويّ البنية، مدجّجًا بالسلاح، وقد امتطى مَهريَّة، ويواكبه أربعة نوبيين مكلّفين بقيادة جمالنا، سواء في الليل أو في المناطق الوعرة، وهم مكلفون أيضًا بمساعدتنا على امتطاء تلك المطايا غير المريحة وإنزالنا عنها. وقد كان

(1) أحد مقدمي الطريقة التيجانية.

(2) كان المقدَّم الآخر، يحيى بن أحمد البوزيدي قد غادر القاهرة في اليوم التالي لحصوله على الفتوى التي حمل نسخة منها إلى شيخه سيدي محمد التيجاني.

المفتي، على الرغم من نوازعه السلميّة التي يفرضها منصبه حريصًا على أن نتسلح، ويتسلح خادماه اللذان خبِرَ شجاعتهما وتفانيهما.

بلغنا قلعة عجرود على ثلاث مراحل، ووجدنا قافلة أولاد بن علي مخيّمةً هناك؛ كانت تضمّ ما لا يقلّ عن أربعمئة حاج وألف جمل. قدَّمنا مقوِّمنا إلى رئيس القافلة، السيد الحاج ميلود. استقبلنا بمنتهى اللطف والكياسة. وميلود هذا شيخ فخذ مهم من أفخاذ العشيرة الكبرى.

ينبغي قبل أن أمضي بعيدًا في حديثي أن أخبر قرائي بألا يتوقعوا أن تمنحهم قصة رحلتي إلى مكّة المتعة والفائدة اللتين قد يجدونهما في قصة رحّالة تحدوه مجرد رغبة في مشاهدة بلد جديد فقط، ودراسة عادات سكانه وتقاليدهم. لم يكن على الإطلاق هذا هو الهدف الذي وضعته نصب عيني في الرحلة التي أقدمتُ عليها، بل وضعت نصب عينيَّ مهمةً انصبت جهودي كلها على تحقيقها، وهي مهمة كادت أن تكون الهدف الأوحد الذي كان يشغلني؛ لذلك ألح في القول إنني لم أُعْرِض عن ذكر التفاصيل الكثيرة المتعلّقة بالمجالس، والعلماء، والمقدمين والفتاوى. عندما كتبت هذا الكتاب الذي أنشره، لم يشغلني قطُّ كسب نجاح أدبي لا أملك صلف التطلع إليه، بل شغلتني أهمية المعلومات التي سيقدمها الكتاب إلى أبناء بلدي، سواء في الحاضر، أو في المستقبل.

يمكن أن تطرأ فجأة تعقيدات خطيرة في أفريقيا؛ كأن يظهر فيها بطل إسلامي جديد يهدِّد هيمنتنا عليها. حينئذٍ يمكننا الاستفادة من مراجعة الوسائل التي استخدمت لمحاربة الأمير الشهير (يقصد الأمير عبد القادر) معنويًا وماديًا، للقضاء على هيبته، وكسب تأييد الشعوب المسلِمة التي كان قد حرضها علينا.

ولا ينبغي أبدًا في ظروف مماثلة إهمال أي تفاصيل، مهما صَغُرت، وما يبدو لنا اليوم قليل الأهمية، قد يكون ذا فائدة كبرى لاحقًا.

إذًا، إنها محض صدفة إن وجدني القراء أخصِّص بعض الصفحات لوصف البلدان والمدن التي عبرتها، ناهيك بأنه لم يكن بوسعي في الظروف التي كنت فيها أن أرى إلا ما يمكن رؤيته بنظرة عابرة.

إن وصف الطرقات التي كانت تسلكها قافلتنا، والمحطات التي توقفت فيها سيبعَثُ على الملل، ولن يقدِّم في الجملة إلا فائدة ضئيلة للقارئ، لأنها طرق ومحطات معروفة معرفة جيدة في يومنا هذا.

غادرنا عجرود في التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر، وبدت لي الطريق رتيبة بعض الرتابة حتى دخلنا السلسلة الغربية من جبال العقبة، وهي تبعد حوالى 250 ميلًا عن القاهرة، وبعض الأميال عن أقصى نقطة شمالي خليج البحر الأحمر المسمى بحر العقبة.

بهرني هناك المظهر المرعب للصخور الشديدة الانحدار التي كان ينبغي علينا المرور وسطها بمشقّة بالغة؛ يعكس هذا الجزء من السلسلة صورة الركام الذي شعثته عوامل الحت.

الكتاب الثاني

المدينة

الفصل الثامن

- الرحلة من قلعة عجرود إلى ينبع
- هجوم على قافلتنا
- ينبع
- الحالة التعِسة للحجاج الجزائريين

كنّا على وجه العموم نسير في الليل، ونرتاح في النهار. وقد أنهكني سير جملي حتى أنني قطعت جزءًا من الطريق سيرًا على الأقدام. ولمّا كانت حذائي رقيقة جدًا، وهي نوع من الخف، فقد كانت الدماء تسيل من قدمي عندما يكون الطريق حصِبًا، وقد تكرر ذلك مرارًا. وعندما كانت الأرض رمليّة كنتُ أفضِّل المشي حافيًا لذلك بقيتُ مدةً طويلة أعاني من تقرنات الجلد عند الكعب، أعمدُ إلى قصّها كما لو كانت قرونًا. ولمّا اجتزنا صحراء التيه وسلسلة جبال العقبة المرعبة، راودني شعور بالراحة لا يمكن التعبير عنه عندما وصلنا في اليوم العاشر إلى وادي مغاير شعيب[1]، وهو وادٍ

(1) مغاير شعيب: من محطات الطريق القديم للحج المصري، يقع في أرض مدين، **مجلة العرب**، س12، ص75 و 281.

فيه أشجار النخيل، وأشجار مثمرة من كل نوع تشكل واحات نزهة. ولما حل المساء، وبينما كنا نقوم بتحميل جمالنا، ونتهيأ لمعاودة المسير، رأينا جماعة من البدو تقترب منا؛ منهم من يمتطي جيادًا أو جمالًا، ومنهم من يسير على قدميه، وقد تسلّحوا جميعًا ببنادق، وحراب، ورماح.

وبينما كان القائد الشجاع، رئيس القافلة، يتقدّم باتجاه البدو ليستطلع نواياهم، وقد امتطى مَهريَّة رائعة، ويتبِعَهُ اثنا عشر من خدمه يمتطون هم أيضًا مَهارى، ومدججون بالسلاح، كنتُ والمفتي، ومقدَّم التيجاني، والمقوّم نسارع إلى تحميل جمالنا، وانطلقت قافلتنا يحرسها من جهة المهاجمين جميع الحجاج المسلّحين الذين نظمناهم في صفّين، وكانوا يتحلّون برباطة جأش كبيرة. أقبل علينا زعماء جماعة البدو مطالبين بحق المرور، وقد رفض قائدنا المقدام ذلك رفضًا قاطعًا، وقد شد من أزره استعدادنا للقتال. حامَ قطّاع الطرق هؤلاء حول قافلتنا مدةً تزيد على ثلاث ساعات، آملين أن ينجحوا في فصل المدافعين عنها؛ بل إن أكثرَهُم جرأةً انقضَّ مرةً بعنفٍ على خاصرتنا اليمنى، فيما تظاهر معظم أفراد الجماعة بمهاجمة خاصرتنا اليسرى. استخدمنا أسلحتنا بأمرٍ من القائد الحاج ميلود، وأيقنَّا تحت ضوء النجوم (كان ذلك في اليوم الأول لبزوغ القمر، السادس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر،

الموافق للأول من شهر شوّال القمري 1257هـ)، أننا أحكمنا التسديد؛ لأننا شهدنا تحرّكًا ينمّ عن تراجع الفريقين المهاجمَيْن، وباستثناء بعض الرصاصات التي سمعناها تئزّ، وتسببت ثلاث منها فقط في إصابة سائق وجملَين بجروح طفيفة، لم يكن هناك ما يحول دون متابعة سيرنا واثقين. كنا ندينُ بسلامتنا لقائدنا الجسور، وللموقف الفعال للمفتي الطيب، ناهيك عن التدابير المناسبة التي اتخذتها. غدوتُ منذ ذلك اليوم موضع اهتمام القائد ميلود ومراعاته، وأصرّ على أن أمتطي واحدةً من خيرة مهاريه التي كانت مشيتها المريحة أقل إجهادًا بكثير من مشية الجمال العادية.

مررنا بعد مغادرة محطتنا الجميلة مغاير شعيب ببعض الأماكن الممتعة الأخرى، من بينها عيون القصب[1]، والمويلح[2]، ثم كان علينا التوقف ثلاث أو أربع مرات للاستراحة في أودية قاحلة بالقرب من آبار تحوي مياهًا أُجاجًا تبعث على الغثيان.

في صبيحة، الثاني من كانون الأول/ديسمبر، وبعد ظهره، وبعد مرور ستة وعشرين يومًا على مغادرتنا

(1) عيون القصب: انظر مجلة العرب، س13، ص 67.
(2) المويلح: مجلة العرب س3، ص 318، وس 13، ص 669، و س 19، ص 742.

القاهرة، وصلنا إلى محطة تدعى ينبع النخل أو ينبع البرّ[1] استرحنا فيها استراحة ممتعة في ظلال نخل بديع.

انقسمَت قافلتنا هناك إلى نصفين. تابع نصفنا تقريبًا طريقه إلى مكّة، بإمرة القائد الحاج ميلود؛ فيما رافقنا النصف الآخر إلى ينبع البحر، حيث كان على الحجاج أن يبحروا إلى جدّة بعد القيام ببعض الأعمال التجارية. أرشدنا قائدنا الطيب الذي سبَق له أن ذهب إلى مكّة مرات عديدة إلى الخان الذي يمكن أن نجده فيه، وافترقنا بعد أن تبادلنا المشاعر الودّية. وفي مساء اليوم نفسه وصلنا إلى ينبع. أنزلنا مقوّمنا الذي كنّا راضين عنه كل الرضا في خان، وتولّى بنفسه مهمة إيجاد مقوّم جديد لنا، لاستئجار الجمال اللازمة لإيصالنا إلى المدينة ومكّة.

خُصِّص يوم الثالث من كانون الأول/ ديسمبر للاستعدادات التي تفضل رفيقي بالتكفل بإتمامها، ولزيارة مدينة ينبع.

وينبع ميناء من أهمّ موانئ البحر الأحمر. شيِّدت المدينة في الجزء الشمالي من خليج عميق بعض العمق، تحميه من

---

(1) ينبع النخل: بلدة عامرة، تقع في وادي ينبع على بعد 50 ميلًا تقريبًا شرقي ميناء ينبع الواقع على البحر الأحمر، اشتهرت بكونها إحدى محطات الحج المصري. انظر **ملامح من تاريخ ينبع**، صالح بن عبد اللطيف السيد، ينبع الصناعية، 1425هـ، ج2، ص 275 ـ 285.

الرياح الجنوبية والغربية جزيرة واقعة في مدخل الخليج[1]. وشيِّدت المنازل عمومًا على نحو غير مُتقَنٍ من أحجار ضاربة إلى البياض ذات مظهر تعِس. وهي تتألف من طابق أرضي وحيد. وتخلو المدينة من أي أوابد أثرية باستثناء مسجدين أو ثلاثة، عمارتهما عمارة متواضعة، وقصر (يا للسخرية!) الحاكم التركي، فيما يبدو سور المدينة، على العكس، في حالة حسنة، وعليه عدة أبراج. قيل لي: إن سكان المدينة أنفسهم قاموا ببنائه إبان اتساع السعودية الأولى (في بداية القرن التاسع عشر) ليحموا أنفسهم من هجمات هؤلاء المصلحين الأشداء.

يقيم في ينبع عرب ينتسبون إلى قبيلة جهينة[2]. وينقسم السكان إلى بحّارة، وتجار، ومزارعين يقضون مدة من السنة في الأودية الخصبة التابعة لسلسلة الجبال الواقعة على بعد عشرة أو اثني عشر ميلًا في الجهة الشمالية ـ الشرقية من المدينة، وهي جبال تحيط بالسهل المجدِب والرمليّ المحيط بينبع. ويقيم هذا المرفأ علاقات دائمة مع مصر، ويملك تجّاره الرئيسيون فروعًا في القصير والقاهرة .

(1) تسمى جزيرة العباسي، إنظر كتاب الشيخ حمد الجاسر، يرحمه الله.

(2) جهينة: قبيلة عربية حجازية، لها امتداد في مصر، يعود نسبها إلى قضاعة. انظر **جهينة ماضيها وحاضرها**، محمد بن نايف العرفي الجهني، دار غريب، القاهرة، 1427هـ.

زيّ السكان هو زيّ بدو الجزيرة العربية: يعتمرون الكوفيّة على رؤوسهم، وهي عبارة عن منديل من الحرير مخطّط باللّونَين الأصفر والأخضر له سجف؛ ويلبسون العباءة (وهي قميص بلا أكمام) من الصوف أو من القماش القطني الخشن، والقفطان، وهو عبارة عن ثوب (من الصوف أو القطن أو الحرير، حسب يسر الفرد) يشدّه عند الخصر حزام من الجلد.

تحوي آبار المدينة مياهًا أجاجًا؛ لكن هناك خارج الباب الذي يدعى باب المدينة صهاريج ضخمة لجمع مياه الأمطار.

التقى المفتي في ينبع باثنين من معارفه من تجار القاهرة قدّمني إليهما، وأعطياني معلومات دقيقة عن الطريقة التي يُعامَل بها حجاج المغرب، سواء في ينبع، أو في القصير، أو في جدّة حيث يذهبون إليها في الغالب تلبيةً لمتطلبات تجارتهم. يتعرض هؤلاء المساكين للابتزاز وسوء المعاملة، ولا يجدون أي دعم من السلطات المحلية. كان الجزائريون يُنكِرون أصلهم؛ لكن يتمّ التعرّف إليهم، ويقعون ضحية كل أنواع الإذلال وسوء المعاملة. وعندما يغادرون القصير متجهين إلى جدة أو ينبع يتعرضون لسوء معاملة أقل؛ لكنهم عندما يبحرون بعد الحج من جدة أو ينبع باتجاه مرفأ مصري فإنهم يتعرضون للابتزاز، ويُحشَرون كالماشية الوضيعة في القوارب الرديئة التي تبحِر في البحر الأحمر.

ويقضي كثير منهم نحبه من الجوع أو من البؤس، بل إن بعضهم يتعرض للخنق على متن تلك المراكب الفظيعة. ثم يلقى بهم إلى البحر، بعد أن ينهبهم الربابنة وطاقم البحارة.

استطعتُ أن أكون شاهد عيان على تفريغ سفينتين محملتين بالحجاج. كانت إحداها قادمة من السويس والأخرى من القصير. كان مظهر هؤلاء التعساء محزنًا. كان عددهم مئتين على متن سفينة لا تكاد تستوعب خمسين شخصًا. وقد بدا أنهم تحملوا هذا العذاب طيلة عشرين يومًا، لا يأكلون إلا الكعك اليابس ولا يحصلون على الماء الضروري كي لا يموتوا عطشًا إلا لقاء مبلغ كبير من المال.

لقد كان ثمّة عملٍ إنساني ينبغي إنجازه، وما أن تتاح لي الفرصة لن أنسى بالتأكيد لفت انتباه حكومتنا إلى الأعمال الوحشية التي يقع رعايانا الجزائريون ضحايا لها.

أنا راضٍ عن نفسي لأنني ساهمت مساهمة ملموسةً في تحسين حالة الحجاج المسلمين الخاضعين لحماية فرنسا.

الفصل التاسع

- الرحلة من ينبع إلى المدينة
- وصف المدينة
- المسجد النبوي
- ضريح النبي ﷺ

بعدما اكتملت جميع استعداداتنا، في الرابع من كانون الأول/ ديسمبر دفعنا المبلغ المترتب لمقوّمنا الطيب، وعقدنا أمام القاضي اتفاقًا مع قائدنا الجديد، تعهّد بموجبه باصطحابنا إلى المدينة، حيث كنا نود الإقامة مدة ثلاثة أيام، وبمرافقتنا من هناك إلى مكّة، مقابل مبلغ قدره مئتا دولار، أي ما يقارب ألف ومئة فرنك.

بِتنا في ينبع النخل الليلة ذاتها، والتحقنا في اليوم التالي، الخامس من كانون الأول/ ديسمبر، بالقافلة التي تقصد المدينة أسبوعيًا قادمةً من ينبع؛ كانت تضمّ بعض التجار، وما يقارب مئة جمل. وبعد مسيرٍ متعب وطويل للغاية، عَبْر سهل رمليٍ ومحصِب تحدّه من الشمال سلسلة من الجبال العالية، وصلنا إلى بدر حنين، وهي مدينة صغيرة شيِّدت على نحوٍ غير متقَنٍ، لكنها محاطة برياض

بديعة ترويها جداول جميلة، وهي مكان تخييم للقوافل المتجهة إلى مكّة، ينبت فيها كثير من أشجار النخيل.

كانت بدر[1] مسرحًا لأحد الأحداث المهمة في سيرة النبي محمد ﷺ، وورد ذكرها في القرآن الكريم. خاض النبي فيها، في السنة الثانية للهجرة، معركة ضد قريش، أعدائه اللدودين، وانتصر فيها بمعجزة[2]. دلّنا مقوّمنا على الصخرة التي وضعها الله، كما قال، بينه وبين أعدائه، كما دلنا على آثار قبور صحابته الذين استشهدوا في ذلك اليوم المشهود.

ينتمي سكان بدر إلى قبيلة حرب البدوية[3]. قمنا بزيارة مسجد يدعى جامع الغَمامة، شُيِّد، كما يقال، في المكان الذي دعا فيه النبي محمد ﷺ، وقد أعياه الحرّ، دعا الله أن يحجب الشمس بغمامة. وجدنا فيه أشرافًا كان ينبغي أن نتبرع لهم ببعض القطع النقدية. كنت راضيًا كل الرضا عن مهريّتي، وكان المفتي راضيًا أيضًا، حتى إننا تركنا القافلة تتقدّمنا، ثم

---

(1) تقع على مسافة 40 ميلًا من المدينة النبوية، وهي موقع معركة بدر الكبرى. وهي اليوم مدينة عامرة، ومحافظة من محافظات المدينة النبوية. انظر: بدر، تأليف محمد صالح البليهشي، سلسلة هذه بلادنا من إصدارات الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض، 1413هـ/ 1993م، ص 134.

(2) الإشارة إلى معركة بدر، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران 123،].

(3) قبيلة عربية عريقة، تعود في أصولها إلى قبيلة خولان القحطانية. استقرت في منطقة الحجاز في القرن الثاني الهجري، وعدها الهمداني وابن فضل الله العمري من أقوى القبائل الحجازية وأكثرها عددًا. انظر مجلة العرب، س 30، ص 79 وما بعدها.

التحقنا بها في المعسكر بمشية أسرع وتعب أقل، لم يذهب الوقت الذي أمضيناه في الطريق سدى. فقد روى لي المفتي، وهو رجل متبحِّر في الدين الإسلامي، سيرة النبي محمد ﷺ، وأعطاني تفاصيل قيِّمة عن مدينتي المدينة ومكّة. كنّا نادرًا ما نتجاذب أطراف الحديث خلال رحلتنا من القاهرة إلى ينبع، لأننا كنّا نسافر ليلًا وننام نهارًا. ثم إننا كنّا نخشى أغلب الأحيان البدو الذين كانوا يهاجمون القوافل الكبيرة أحيانًا، على الرغم من الحراسة التي يقوم بها جنود مصريون. وقد كان لدى أولئك البدو دافع قوي لمحاولة نهب قافلتنا التي لا يحرسها سوى قادتها وحجاجها.

تمرّ الطريق من بدر إلى المدينة عمومًا عبر أودية مرويّة ومزروعة بأشجار النخيل، وبأشجار من كل نوع؛ فهي بالتالي سهلة العبور، باستثناء الممر عبْر سلسلة الجبال التي تسمى ثنية الوسط؛ فهو شاق للغاية، بل خطِر.

وصلنا في التاسع من كانون الأول/ ديسمبر إلى وادي الشهداء. أرشدنا دليلنا إلى أضرحة أصحاب النبي ﷺ الأربعين الذين قتلوا في موقعة شُنَّت على العرب المشركين. كان علينا أن نترجّل جميعنا عن جمالنا لنركع قرب قبورهم(*) حيث تلا المفتي سورة من القرآن تشير إلى

(*) ليس من الإسلام في شيء أن يركع المسلم لغير الله.

هذه المعركة. عبرنا في اليوم العاشر، سلسلة جبال جديدة بدت لي صخورها صوانيّة، وخيّمنا في وادي العقيق.

انكشفَت المدينة أمامنا، في اليوم الحادي عشر، نهارًا، وهي تقع في غورٍ إلى الجنوب من سلسلة كبيرة من الجبال. أخبرنا مرشدنا أنها تشكّل امتدادًا لسلسلة جبال لبنان.

توقفنا في محطة كنا نلمح منها قبة ضريح النبي ﷺ، توضأنا وركعنا ثلاث ركعات، ونحن نتلو مقاطع من القرآن الكريم. لم يكن أمامي في جميع هذه الشعائر إلا أن أحذو حذو رفيقي المفتي.

تبدو المدينة جذابة، تحيط بها رياض غناء تكثر فيها أشجار النخيل خاصة. نلمح بين الأشجار قمم الأبراج ذات الفتحات التي تحصّن حائط السور، ومآذن مساجدها الفارعة. يشرف على المدينة قصر محصّن تحصينًا لا بأس به. دخلنا إحدى ضواحيها من الباب الذي يسمى بباب العنبريّة .عبرنا جسرًا، ثم استقرت قافلتنا في ساحة فسيحة، تسمى المناخة، تفصِل هذه الضاحية عن المدينة.

أما أنا ورفاقي، فقد دخلنا المدينة، برفقة مقوّمنا، عبر باب يسمى بالباب المصري، ويعد نموذجًا بديعًا للعمارة العربية. اصطحبنا مرشدنا إلى خان يقع في حي الأغوات قرب المسجد الكبير. كنت على الرغم من قلقي مهتمًا كل الاهتمام بمنظر هذه المدينة المشهورة التي لم يدخلها سوى

نصراني واحد أو اثنين قبلي. كان المفتي يسعى جاهدًا لتهدئة فضولي وإعجابي. كنتُ أتلهَّف لرؤية المسجد الكبير. وقد أصرَّ العجوز الطيب على مرافقتي لرؤيته على الرغم من الإرهاق الذي حلَّ به. دخلنا الحرم عبر بوابةٍ مهيبة تنفتح على صفٍّ من الأعمدة تقودنا إلى ضريح النبي ﷺ. أقبلَ الليل؛ كانت المصابيح المتدلّية من القبب القوطيّة تبعثُ نورًا خفيًا على الأعمدة المطليّة، والكتابات المذهّبة والسجاد البديع الذي يغطي الأرض. بدا المنظر أخاذًا. لكنني لم أستطع أن أدقِّق في أي تفصيل. صلينا ركعاتنا وتلونا أدعيتنا بالقرب من الحاجز المشبَّك الذي يحيط بالضريح. بقي المفتي في وضع تأمل طويلًا. أما أنا، فلم ينقضِ عجبي مما أرى. عدنا أدراجنا دون أن يتسنى لنا تفحص سائر المسجد، وبعد تناول الوجبة التي أعدتها زوجة المفتي الفاضلة، اصطحبنا مقومنا إلى حمام مغربي راقني، وإن كان حمام مدينة الجزائر يفوقه كثيرًا. ما إن طلع النهار، في اليوم التالي، حتى ذهبتُ برفقة المفتي والمقدّم لزيارة الجامع الكبير الذي يدعى بالحرم (اسم يطلق أيضًا على مكّة). يطلق المسلمون اسم «الحرمين الشريفين» على المدينتَين المقدستَين [1]، مكّة والمدينة.

---

(1) أرجو ألا يسيء قرائي فهمي حول المعاني التي قصدت أن أنسبها إلى التعابير: مقدسة، شهداء، نبي... إلخ، التي وجدت نفسي مرغمًا على أن أستخدمها لأعبِّر بدقة عن مدى الاحترام الذي يكنّه المسلمون لأولئك الأشخاص ولتلك الأماكن [الرحالة].

ويسمونه أيضًا مسجد النبي. عند وصولنا إلى باب المسجد الكبير، وجب علينا أن نتخذ دليلًا يسمونه مزوّرًا، وهو اسم يطلق على الحراس المعتمدين المكلفين بمرافقة الحجاج في زيارة الأماكن المقدسة، وإرشادهم إلى الأدعية والركعات التي ينبغي عليهم أداؤها، وتقديم شروح تاريخية ودينية لهم. يؤدي هؤلاء المزورون مهامهم بمهارة نسبية، تتأثر بمكانة الزوّار، وبالبقشيش الذي يعدونهم به على وجه الخصوص.

إن الإيضاحات التي أوردها هنا في وصف المسجد الذي بقينا فيه مدة تزيد على ست ساعات متتالية مستقاة أيضًا من إيضاحات مزوّرنا، وإيضاحات رفيقي العزيز التي هي أكثر دقة وأهمية.

يشكل هذا المسجد، الذي يقع في الطرف الشرقي من المدينة مربعًا كبيرًا تحيط به من جميع الجوانب صفوف أعمدة مسقوفة؛ يبلغ طول كل ضلع منه ما يقارب مئة وخمسين قدمًا. شيّدت صفوف الأعمدة هذه تشييدًا غير منتظم. نجد عشرة صفوف من الأعمدة في الطرف الجنوبي؛ وثلاثة وأربعة صفوف في الجهات الأخرى.

يقع ضريح النبي ﷺ في الطرف الجنوبي. الأعمدة هناك أكثر جمالًا، يبلغ قطرها على الأرجح ما يقارب 75 سنتمترًا. شيّدت من الحجارة المبيضة بالكلس؛ بعضها مكسوٌّ بتصاوير غير متقنة. يسمى هذا القسم من المسجد بـ «الروضة»، لأن

الأعمدة التي توجد في هذه الفسحة مغطاة برسومات تمثل أشجارًا وورودًا. تدعّم هذه الأعمدة قببًا مطليّة بالكلس؛ تتشكل أفاريزها من آجرٍ أخضر اللون. كما طليت الجدران بالكلس، باستثناء جدران القسم الجنوبي، فقد غطيت بألواح مرمرية نُقِشت عليها، بحروف من ذهب، آيات قرآنية خُطَّت بكتابة جديرة بالإعجاب.

رُصِف قسم من المسجد، وهو القسم المكشوف الذي يشكِّل الباحة، فيما غطي القسم الآخر بالرمل. وغطيت صفوف أعمدة الروضة بالمرمر.

ينتصب ضريح النبي ﷺ الشهير على مقربة من الركن الجنوبي ـ الشرقي؛ وتفصله ثمانية أو عشرة أمتار عن جدران المسجد. حلَّت فسيفساء في منتهى الروعة محل البلاط الرخاميّ في القسم المجاور للضريح الذي يحيط به حاجز مشبّك حديديّ متقن الصنع زُخرِف بكتابات جميلة من البرونز المذهّب. يبدو هذا الحاجز المشبّك على شكل مربع غير منتظم يبلغ طول كل جهة منه ما يقارب أربعة عشر مترًا، تتخلّل إحدى جهاته بعض الأعمدة التي تدعم قناطر المسجد. يبلغ ارتفاعها ما يقارب خمسة عشر مترًا. أُحدثت بعض النوافذ الصغيرة في الحاجز المشبك تعلو عن الأرض 1,20 مترًا. وفي الجهة الجنوبية نافذتان كبيرتان ازدانت ركائزهما بصفائح من الفضة نُقِشت عليها كتابات عربية بارزة جميلة. في هذا المكان يتلو الحجاج أطول الأدعية. تضيء هذا الضريح كوى كبيرة فُتِحت في جدران

المسجد تسدها ألواح زجاجية ملوّنة. وفي الحاجز المشبّك أربعة، شرِّع واحد منها فقط ليفسح المجال لمرور الحراس المكلفين بالنظافة والإنارة.

يُطلَق على الحرم المسوَّر اسم الهجرة (رحيل: Abitus)[1]، نسبة إلى هجرة النبي ﷺ من مكّة إلى المدينة، ومنها اشتقت كلمة هجري التي تعني التقويم الإسلامي[2].

يرتفع البناء الذي يغطي قبر النبي، الذي لا يُرى، ارتفاعَ الحاجز المشبّك ذاته تقريبًا. تغطيه بالكامل ستارة كبيرة من الحرير الموشّى بأزهار وزخارف عربية تشكل شريطًا في وسطه، مع كتابات عربية نافرة مذهّبة. ويوجد ممر من ثلاثة أو أربعة أمتار بين الستارة والدرابزين. ولا يسمح إلا لكبار الزوار بدخول هذا الممر؛ ولكن يمكننا الحصول على هذه الحظوة إن دفعنا بقشيشًا للحراس. لكن

---

(1) وردت باللاتينية في المتن الأصلي.

(2) يخلط بين الهجرة والحجرة لأنه لا يميز الحاء من الهاء. وهذا من المواضع التي علق عليها الأديب الجزائري أحمد رضا حوحو في القسم الذي ترجمه من كتاب الحاج ناصر الدين دينيه في كتابه: **الحج إلى بيت الله الحرام** لناصر الدين دينيه يقول: «لا غرابة في غلط ليون روش إذ ثبت أنه أخذ أبحاثه من الكتب، والكتب الأوروبية حتمًا، مثل كتاب بوركهارت وغيره، وغير خافٍ أن الأوروبيين لا يستطيعون النطق بحرف الحاء، ولكنهم يحرفونه دائمًا في لغتهم إلى هاء، ولهذا السبب وقع ليون روش في ما وقع فيه من الخلط والتلفيق والالتباس، فقرأ لفظة هجرة المشتقة من هجر بالحاء، وظن أن حجرة وهجرة مشتقتان من الجذر نفسه، فتسبب له ذلك بهذا الغلط الفاحش الذي أفسد عليه عمله ودل على جهله... انظر كتاب: من **رحلات الفرنسيين إلى الجزيرة العربية**، م. س، ص159 ـ 160.

لا يسمح لأحد، كما أخبرونا، برفع السِتارة التي فيها فتحة تتيح الدخول إلى الضريح. ليس هذا الأمر تجنيًا، ولسنا الوحيدين الذين نلنا هذه الحظوة. فلقاء مبلغ عشرين دولارًا فقط (110 فرنكات) وزّعها المفتي بمهارة، حصلنا على إذن ليس بالدخول فقط إلى الممر المحمي، بل برفع الستارة الثانية أيضًا عندما لا يكون أي حاج ينظر من النوافذ الكبيرة. لم تكد تستغرق هذه المخالفة سوى دقيقة بالكاد. إلا أننا حصلنا على الوقت الكافي لرؤية ثلاثة نعوش تقريبًا مغطّاة بأقمشة نفيسة داخل غرفة مربّعة يدعم سقفها عمودان. كانت الأقمشة الثمينة والجدران التي بدت لنا سوداء، شبه مضاءة بنور خفيف ينبعث من عدد من المصابيح الذهبية.

وقد أخبرنا الحراس خبرًا أكده المفتي الذي قرأ وصف الجامع والضريح لدى مؤرخي المدينة: يوجد هنا قبر النبي محمد ﷺ، وقد حُفِر عميقًا في الثرى، وأن جثمانه مسجى في نعش من خشب الأرز تكسوه بأكمله صفائح من الفضة. أما الضريحان الآخران، وهما أصغر منه حجمًا، فيضمّان جثماني أبي بكر رضي الله عنه، حمي النبي، وعمر بن الخطاب، ثاني خلفائه رضي الله عنه. وجُهِّز حيّز بجانب ضريح النبي محمد ﷺ يضمّ قبرًا مفتوحًا وفارغًا. أُعِدَّ لاستقبال جثمان يسوع، ابن مريم[1]، الذي رفعه الله إلى

(1) لم نجد ذلك فيما صح من الأخبار.

السماء جسدًا وروحًا. لقد أُتيح لي أن أشير في الجزء الأول إلى أنَّ المسلمين لا يقرون بعقيدة ديانتنا الأساسية، عقيدة الفداء الإلهي. حسب عقيدتهم الدينية قام اليهود بصلب أحد أبناء دينهم بعد أن جعله الله على صورة سيدنا عيسى عليه السلام الذي صعد حسب اعتقادهم حيًا إلى السماء، ومنها سيعاود النزول يوم القيامة ليهدي سكان الأرض جميعًا إلى دين الإسلام، سيفصل الأخيار عن الأشرار، سيموت، ثم سيدفن في الضريح المخصص له بالقرب من ضريح النبي محمد ﷺ.

يقع ضريح فاطمة(*)، ابنة النبي ﷺ، وزوجة علي رضي الله عنه في الفسحة الواقعة بين الحاجز المشبك الذي يحيط بضريح النبي ﷺ، والسِتارة التي تغطيه. يقال: إن ضريح النبي ﷺ كان محاطًا بهبات رائعة مقدَّمة من جميع أمراء الإسلام، لا تقدر قيمتها بثمن؛ لكنها تعرّضت للدمار أو النهب بسبب الحرائق، وعند دخول السعوديين المدينة. وقد أخبرنا الحراس عن وجود بعض المزهريات البديعة المصنوعة من الذهب المُصمت.

(*) وقال الواقدي:
قلت لعبد الرحمن بن أبي الموالي: إن الناس يقولون إن قبر فاطمة بالبقيع.
فقال: ما دفنت إلَّا في زاوية دار عقيل وبين قبرها وبين الطريق سبعة أذرع.
والصواب أنه في البقيع.

الفصل العاشر

- نبذة عن السعوديين[1]

بما أنني أتيتُ على ذكر اسم السعوديين، وقد صادفتني غالبًا آثار غزواتهم في أرض الحجاز، أجِد من المفيد أن أعرض هنا، في عدة سطور، نشأة الدعوة الإصلاحية ومذهبها، وألقي نظرة سريعة على مدى الانتشار الهائل لهذه الدعوة التي هدَّدت، بعد أن تنامت سلطتها الدنيوية، سيطرة الأتراك في جنوب الإمبراطورية العثمانية بأكمله، وعلى الأحداث التي أدَّت إلى تراجع تلك السلطة وتدميرها.

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رأس الدعوة الإصلاحية في نجد (قلب الجزيرة العربية) في بداية القرن الثامن عشر. وبعد أن قام بعدد من الرحلات في طلب العلم إلى المراكز الدينية في بغداد ودمشق عاد

(1) في الأصل: نبذة عن الوهابيين. وهي نبذة مختصرة يجد القارئ تفاصيل أوسع في كتاب: **تاريخ الوهابيين** للويس ألكسندر دو كورانسية، بترجمتي بالاشتراك مع الدكتور إبراهيم البلوي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض.

إلى بلده، ونجح سريعًا في استقطاب أهل بلده جميعًا إلى مذهبه مُدَّعيًا أنه مُلهَم[1].

تقوم هذه الدعوة على الرجوع بالإسلام إلى الإيمان بالله وحده فقط. ولا ترى في محمد إلا إنسانًا خصَّه الله بحبّه؛ وترفض اعتمادًا على ذلك المبالغة في تبجيله لأنه نبي. وهي دعوة ترفض كل مظاهر البذخ والزينة في بناء المساجد، وتطالب بهدم جميع القُبب (أضرحة بقبة أو من دونها) مما شيد فوق قبور المرابطين الذين ترفض الدعوة كل الرفض تقديسهم؛ حتى إنها لا تستثني من ذلك القبة التي تعلو ضريح النبي محمد ﷺ.

باختصار، لا تقبل الدعوة بوجود أي وسيط بين العبد وربه. وتعارض كل مظاهر الترف، وتطلب من المنتسبين إليها البساطة في المأكل والملبس. وإن الدرقاويين الذين تحدثت عن عدائهم الشديد للأمير عبد القادر الجزائري

---

(1) لم نجد في أدبيات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مثل هذا الادعاء الذي يبتعد كل البعد عن مبادئها. ويتناقض مع ما سيذكره روش نفسه بعد قليل. وقد استبدلت بمصطلح الوهابيين مصطلح السعوديين، وبمصطلح الوهابية الدعوة الإصلاحية احترامًا للمنطقية التاريخية الدالة على الدعوة. فقد ذكر لويس بلي أن أتباع الدعوة كان يسمون أنفسهم رجال ابن سعود أيضًا. وانظر في حياة الشيخ ومؤلفاته كتاب الأستاذ الدكتور أحمد الضبيب.. وكتاب الدكتور عبد الله الصالح العثيمين.
ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية في طوريها الأول والثاني، وتطور فقه الدعوة، قبل تدمير الدرعية وبعده، يحتاج إلى دراسات ما زالت مراكز الأبحاث في المملكة معرضة عنها.

متأثرون بالسعوديين. (في المجلد الأول، الكتاب الثالث، الفصل 20).

نصَّبَ[1] الشيخ محمد بن عبد الوهاب ابن سعود، أمير الدرعيّة، عاصمة نجد التي تبعد قرابة أربعين فرسخًا عن الخليج العربي حاكمًا مدنيًا، ومن حينها اتخذ السعوديون شعار: «إما النصر لعقيدتهم أو الموت». وانضم إليهم عدد من القبائل العربية، بعد أن أخضعها أتباع الدعوة الجديدة بقوة السلاح، ووجد عبد العزيز، خليفة ابن سعود، نفسه مذ ذاك على رأس جيش قوامه مئة ألف مقاتل .

ولما لم يكن العثمانيون يمارسون سوى سلطة اسمية على الأقاليم البعيدة عن القسطنطينية فقد عمد السعوديون إلى غزو الأقاليم المتاخمة لتركيا وآسيا لسنين طويلة دون أن ينالوا جزاءهم. ولم يستطع باشاوات بغداد الذين أمرتهم الدولة العثمانية[2] بمواجهة هؤلاء المتمردين فعل شيء ضدهم مما أظهر عجزهم. لقد كان السعوديون الذين فرحوا بهذا العجز يطمعون بالكنوز المكدّسة في حرمَي مكّة والمدينة.

نشب نزاع بين شريفين من الأشراف كانا يطمحان إلى السلطة هما: غالب وعبد المعين، تحالف هذا الأخير مع

(1) ليس هناك تنصيب، وإنما كان تحالفًا مباركًا بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب رحم الله الجميع.

(2) دخل أتباع الدولة السعودية الأولى مكّة المكرمة مرتين، ولم يحدث في المرتين ما يزعمه روش من قتل ونهب.

عبد العزيز، إمام السعوديين الذي اغتنم هذه الفرصة ليحقق طموحاته وطموحات أتباع الدعوة التي تبناها، فأرسل ابنه سعود على رأس مئة ألف رجل، ليحارب جيش غالب الذي مُني بهزيمة ساحقة، واستعاد عبد المعين عرش مكّة، لكن بأي ثمن!

قام السعوديون بقتل عدد من المسلمين الذين رفضوا اعتناق الدعوة الجديدة(*)، ونُهِبت جميع كنوز الحرم المكيّ. جرى ذلك في عام 1803م.

لقد عاد السعوديون إلى اجتياح إقليم الحجاز بعد بضع سنوات، ونهبوا القافلة المتوجهة إلى مكّة، واستولوا على هذه المدينة إضافة إلى جدة والمدينة التي كانت قد تصدَّت لهم في الغزوة الأولى، وانتصرت عليهم. ونشرت أخبار القتال الذعر في الأماكن المقدسة كلها، ونُهبت كل النفائس المكدّسة حول ضريح النبي محمد ﷺ، وما زلنا نشهد، في كل خطوة، آثار الدمار الذي تسبب به هؤلاء المصلحون الأشداء.

تأثّر الباب العالي، وبريطانيا نفسها من اتساع نفوذ تلك الدعوة، وهو نفوذ كان يهدد في الوقت نفسه الإمبراطورية العثمانية، ويؤدي إلى نضوب مصادر التجارة البريطانية في البحور التي تحيط بالجزيرة العربية. عقدَت بريطانيا تحالفًا مع إمام مسقط، ورجا سلطان القسطنطينية، عام 1810م،

(*) هذا من الأحكام التي لا دليل عليها.

من محمد علي مساعدته في حربه ضد السعوديين. مُني الجيش الأول الذي قاده طوسون بيك، ابن باشا مصر، في البداية ببعض الهزائم، وكان عرضة لخطرٍ داهم لولا خيانة شريف مكّة الأكبر الذي تخلى عن السعوديين، واستمال إلى جانبه عددًا من القبائل العربية التي كانت من حلفائهم.

سيطول الأمر كثيرًا لو سردتُ الآن الأحداث التي جرت إبان الصراع المشهود الذي خاضه السعوديون في حربهم ضد جيوش محمد علي، منذ عام 1810م حتى عام 1818م، وهو صراع انتهى بالاستيلاء على مدينة الدرعيّة، عاصمتهم، وباستسلام أميرهم عبد الله، الذي أُرسِل إلى استانبول حيث أمر السلطان بقطع رأسه، على الرغم من الأمان الذي كان قد أُعطِي له علنًا[1].

لا شك في أن محمد علي كان سيفشل فشلًا ذريعًا في حملته ضد السعوديين لولا ارتداد غالب، شريف مكّة الأكبر. التمس هذا الشريف الذي كان يتخوّف من طموح جيرانه الأشداء، ومن تشدّدهم الديني، بلا تبصر تدخل والي مصر الذي ساهمت سياسته المراوغة مساهمة كبيرة في إثارة شكوك الشريف غالب؛ لكنه سرعان ما أدرك الخطأ الذي

(1) انظر تفصيل ذلك في كتاب مانجان **تاريخ مصر في عهد محمد علي** الذي ترجمت منه ما يتعلق بالدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي على الجزيرة العربية، ونشرته دارة الملك عبد العزيز بعنوان **تاريخ الدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي على الجزيرة العربية**، الرياض.

ارتكبه عندما تخلى عن حلفائه القدماء، وبتعبير آخر، لقد وضع نفسه تحت وصاية محمد علي. وعندما رغب في استعادة استقلاليته كان قد سبق السيف العذل. لقد حقّق باشا مصر إنجازين مهَّدَت لهما سياسته البارعة وهما: القضاء على نفوذ السعوديين، وفرض سلطته في الأماكن المقدسة.

حملت محاولات المقاومة التي قام بها غالب المسكين، الذي التجأ إلى قلعة مكّة، محمد علي على التخلص من هذا العائق الأخير أمام تنفيذ مخططه؛ فاستدرجه إلى مقابلته، بذريعة ما، ثم سجَنه وأرسله إلى استانبول حيث لقي مصرعه بعد مدة وجيزة. ومنذ ذلك الحين أصبحت سلطة أشراف مكّة الكبار الدنيوية سلطة اسمية فقط.

سأنقل في الصفحات القادمة من هذا الكتاب حديث أحد أفراد سلالة النبي ﷺ الذي يحمل لقب شريف. إنه الشريف الذي سأقابله قريبًا بتوصية من صديقنا المشترك الشيخ فرينيل، وسيطلعنا بنفسه على الوضع غير المستقر الذي أورثه غالب لخلفائه. وسيبوح لنا بتقديراته حول الأسباب التي أفضت إلى تداعي سلطة الأمراء السعوديين، وهي أسباب يبدو أنها ستقف حجر عثرة في طريق انتشار عقيدتهم من الآن فصاعدًا.

الفصل الحادي عشر

- تتمة وصف مسجد النبي ﷺ وضريحه وقبور بعض أفراد آل بيته

أعود إلى وصف الحرم. يروي المؤرخون العرب أن النبي محمد ﷺ قام ببناء مسجد المدينة؛ لذلك سمِّي بمسجد النبي.

عندما وصل النبي محمد ﷺ إلى المدينة، بعدما أُخرِج من مكّة، كانت تدعى آنذاك يثرب. حال وصوله التفَّ حوله الأنصار الذين اشتروا الأرض حيث بركت ناقته من بعض العرب الفقراء، وبنى عليها مصلى تُدعِّم جدرانه المصنوعة من لَبِن سقفًا شُيِّد من عوارض النخيل وجريده. حتى السقف كان مدعَّمًا بجذوعٍ تلك الشجرة لتكون له كالأعمدة. كانت في البداية قِبلة مسجدِه الصغير باتجاه القدس، بيت المقدس. ولم تتحدد قِبلة المساجد باتجاه الكعبة (بيت إبراهيم في الحرم المكيّ) إلا في السنة الثانية للهجرة.

قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العام 17 للهجرة بتوسيع المسجد، وأحاط الحجرة (ضريح النبي محمد ﷺ) بجدار. وشيَّد الخليفة عثمان الحرم من حجرٍ بناء منحوت. وفي عام 91 للهجرة، قام الخليفة

الوليد[1] بتوسيع المسجد بعد أن اشترى من ابنة النبي ﷺ وزوجاته منازلهن التي كانت في محيط الحرم. كما عمِل الخليفة المهدي على توسيعه وتجميله عام 160 للهجرة. وفي عام 654هـ تسبَّبَ ثوران بركاني في احتراقه.

أعاد سلطان مصر بيبرس بناءه، عام 678هـ[2]، ثم تسبّبت صاعقة وقعت في عام 880هـ في احتراقه بالكامل. وأخيرًا أعاد قايتباي[3]، حاكم مصر، بناءه على ما هو عليه اليوم. وهو الذي عمل على بناء القبّة البديعة فوق ضريح النبي ﷺ، وهي قبة يمكننا أن نرى من مسافاتٍ بعيدة غطاءها الرصاصيّ الذي تعلوه كرة ضخمة وهلال يقال إنهما مصنوعان من الذهب الخالص. حاول السعوديون تدمير هذه القبّة، لكن يقال: إن عوارض عجائبية منعتهم من ذلك[4].

عُهِد بحراسة المسجد وبتنظيفه إلى خصيان كان رئيسهم

(1) الوليد بن عبد الملك الذي حكم بين عامي 86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م

(2) قارن بما لدى بوركهارت، **الهلابي والشيخ**، ص326؛ إذ يذكر أن الترميم اكتمل في سنة 657هـ، والصاعقة وقعت عام 886هـ.

(3) قايتباي، الذي أعاد بناء المسجد بناء كاملًا ليصبح كما كان عليه سنة 892هـ، تولى الحكم في مصر من سنة 872هـ/ 1467م إلى سنة 901هـ/ 1496م. انظر بوركهارت، **الهلابي والشيخ**، ص، 64، و327.

(4) انظر بوركهارت، **الهلابي والشيخ**، ص311 ـ 312.

يحمل لقب قزلر ـ أغاسي[1]. أما شيخ الحرم فيشغل منصبًا عاليًا جدًا، ويقوم السلطان العثماني باختياره.

إن للمسجد موارد ضخمة؛ لكن ما يُصرف منها لإشباع جشع السلطات المكلّفة بالعناية به أكثر من كلفة العناية ذاتها؛ مما يفضي إلى قصور كبير في الخدمات. وتحيط بالمسجد مدارس لا تشهد إقبالًا كبيرًا عليها. ولما لم تكن زيارة ضريح النبي واحدةً من الفرائض التي يلزِم بها القرآن الكريم لإتمام شعائر الحجّ، ولأن حماسة المسلمين لزيارتها لم تعد كما كانت من قبل فقد بدت مرافق مدينة المدينة في طور التراجع. وقد ترسخت لدينا القناعة بذلك عندما تجولنا في شوارعها، ولاحظنا وجود عدد كبير من المنازل المتداعية.

رغب المفتي الورع في زيارة أضرحة جميع الأشخاص المشهورين الذين دفنوا داخل المدينة وفي الضواحي؛ كان عليّ مرافقته. إليكم أسماء المشهورين منهم:

(1) يقول بوركهارت في رحلته، ترجمة **الهلابي والشيخ**، م. س، ص318 إن رئيس الأغوات يسمى شيخ الحرم، وهو أيضًا رئيس المسجد والشخص الرئيسي في المدينة... وشيخ الحرم الحالي كان في ما مضى يشغل وظيفة قزلر أغاسي، وهي وظيفة تعني الإشراف على حرم السلطان سليم... وجاء في المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية، د. سهيل صابان، منشورات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1421هـ/ 2000م، ص180: قزلر آغاسي: وتعني المشرف على دائرة الحريم في القصر السلطاني...

إبراهيم، ابن النبي الذي توفاه الله صغيرًا؛ وفاطمة ابنته؛ وعدد من زوجاته وبناته الأخريات؛ ومرضعته. وفاطمة [بنت أسد]، والدة علي، صهر النبي ﷺ. وعثمان بن عفان، أحد خلفاء النبي ﷺ الأوائل، وهو الذي جمع القرآن في مصحف واحد. والإمام مالك بن أنس، مؤسس المذهب المالكيّ. لذلك تعدّ المدينة مكانًا مقدّسًا أكثر من مكّة لأتباع المذهب المالكيّ، أعني سكان أفريقيا الشمالية كلهم تقريبًا من درنة حتى المغرب[1].

يصعب أن نصادف هذا الكمّ من أضرحة الأولياء والعظماء المسلمين في أي مكان آخر. ولكن نسبة الذين يزورونها أقل من نسبة من يزورون معظم قُبَب المرابطين التي تنتشر بكثرة في جميع البلدان الإسلامية.

قمنا بزيارة جبل أحد، الواقع خارج المدينة، حيث دفِن حمزة، عم النبي ﷺ، وأنصاره الذين قتِلوا في المعركة الكبيرة التي خاضها النبي محمد ﷺ مع عرب قريش في هذا المكان[2]. كما قمنا بزيارة قرية تدعى قُباء، محاطة برياض غناء من أجمل ما يمكن أن تقع عليه العين. يُروى أن مسجدًا صغيرًا شيِّد في المكان الذي بركت فيه ناقة النبي محمد ﷺ التي أضناها التعب عندما أُخرج من مكّة[3].

(1) قارن بما لدى بوركهارت في رحلته، ص335 [المترجم].

(2) قارن بما لدى بوركهارت، ص338 [المترجم].

(3) يذكر روش في مج2، ص79 أن الناقة بركت في موقع المسجد النبوي، وليس في قباء كما يصرح هنا.

لو أردت أن أصف الشعائر الكثيرة لطال الكلام كثيرًا، أعني الشعائر الطويلة التي ينبغي على الحجاج أداؤها عند زيارتهم المسجد، والأضرحة والأماكن التي يجلّها المسلمون: ناهيك عن أنني كنت أكتفي بأن أحذو حذو رفيقي، وأتقيّد بتعليمات مزوِّري. أنّى ذهبت تجِد متسولين؛ أنّى حلَلْتَ ينبغي باسم الصدقات أن تدفع البقشيش.

بدت لي منازل المدينة النبوية التي لم تتهدم مشيَّدة على نحو متقَنٍ؛ تتألف البيوت جميعها من طابقٍ واحد أو اثنين، ليست مطليّة بتخشينة، ولا بالكلس، مما يضفي على الشوارع مظهرًا كئيبًا كل الكآبة.

الشارعان الرئيسان، المسميان سوق باب المصري وسوق البلاط، ينطلق الأول من باب المصري، والثاني من باب الشامي ويؤديان إلى المسجد الكبير. تقوم على جانبَيهما محال قلما يأتيها زبائن من الضواحي التي تفصلها عن المدينة الساحة الكبيرة التي تسمى بالمناخة[1]، وهي الساحة التي تركنا فيها جمالنا. توجد منازل تتألف من طبقةٍ واحدة يؤمها سكان المدينة في فصل الربيع. وهي منازل تحيط بها رياض غناء ترويها مياه غزيرة.

---

(1) انظر «مركز المناخة الحضري: ذاكرة حية لتراث المدينة المنورة»، للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخطيب، **مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة**، العدد 7، شوال ـ ذو الحجة 1424هـ، كانون الأول/ ديسمبر ـ شباط/ فبراير 2004م، ص 9 ـ 37.

قام المفتي بزيارة علماء الحرم الذين كان على كبيرهم التوجه إلى الطائف للقاء الشريف الأكبر سيدي محمد بن عون[1]. أكَّدت لي هذه المعلومة المعلومات التي كنت قد حصلت عليها من الشيخ القادري والشيخ تونسي في القاهرة. لم يكن هناك داعٍ لمفاتحة علماء المدينة بأمر فتوى القيروان التي كان يحملها مرافقنا سيد ميلود بن سالم الأغواطي، مقدّم سيدي محمد التيجاني.

بعد انقضاء الأيام الثلاثة التي كان علينا أن نمضيها في المدينة، حسبما اتفقنا مع مقوّمنا، حددنا موعد مغادرتنا. وددتُ أن أرى بمزيد من التفصيل كل ما تسنت لي رؤيته على عجَلٍ في هذه المدة الوجيزة التي أمضيناها في المدينة، خصوصًا أن القسم الأكبر منها قضيناه في أداء

(1) الشريف محمد بن عبد المعين بن عون: أهم شخصية في أسرة «الأشراف ذوي عون» ويعد المؤسس الأول لإمارة الأشراف «ذوي عون» في مكّة والحجاز، وهو الجد الأعلى للأسرة الهاشمية التي حكمت الحجاز وسورية والعراق، وتحكم الأردن اليوم. ويذكر الموروث الشعبي لعرب الجزيرة عن هذا الشريف الأمير ولعه وحبه للخيول العربية الأصيلة. وكان عارفًا وخبيرًا بأنسابها ومرابطها عند العربان، فتهافت عليه رجال القبائل العربية من كل بوادي العرب جالبين إليه أصائل الخيول العربية، وكان يدفع لهم مبالغ خيالية. وكان شاعرًا مجيدًا ما زالت أشعاره تتردد حتى اليوم على ألسنة عربان البوادي. بقي الشريف محمد بن عبد المعين بن عون أميرًا لمكّة المكرمة مدة 25 سنة وتوفي في شعبان 1274هـ/ آذار/ مارس 1858م وكان عمره حين وفاته تسعين سنة. انظر كتاب **حكام مكّة**، دي غوري، م. س، ص 305.

الشعائر الدينية والصلوات. كنت أشعر أنني أشبعت فضولي إلى حد كبير تجاه هذا الأماكن المقدسة، وتجاه مهد الإسلام هذا. لكن شعوري الديني ظلّ غريبًا، ولاسيما أن مشاعر المسلمين الذين التقيتهم فيها تنمّ عن لامبالاة. شهدت إيمانًا أكثر عمقًا عندما أقمت بالقرب من عبد القادر.

ما الأحاسيس التي كنت سأشعر بها يا ترى لو تمكنت من الصلاة أمام ضريح سيدنا يسوع المسيح، بدلًا من أن أكون بالقرب من ضريح محمد! إنها أحاسيس أصبحت اليوم أكثر من أي وقت مضى أفهمها حق الفهم. لذلك عزمت على زيارة القدس والأماكن المقدسة المحيطة بها فور انتهائي من أداء الحج في مكّة، هذا إن لم ألقَ حتفي فيها.

الكتاب الثالث

مكَّـة

الفصل الثاني عشر

- مغادرة المدينة
- الطريق من المدينة إلى مكّة
- إحرام
- دخول مكّة

غادرنا المدينة النبوية يوم الثلاثاء في الرابع عشر من كانون الأول/ديسمبر عام 1841م (الموافق للتاسع والعشرين من شوال عام 1257هـ)، من باب المصري الذي كنا قد دخلنا إليها منه. التحق مقوّمنا بقافلة من مئة جمل تقريبًا، كانت متوجّهة إلى جدة. سلكنا لمدة أربعة أيام الطريق نفسه الذي اتخذناه عند الذهاب. تركنا طريق ينبع ـ المدينة عند محطة الصفراء[1].

والصفراء قرية جميلة حقًا، مبنية على منحدر هضبة فوق وادٍ خصيب يمتاز برياضه الغناء وبوفرة أشجار النخيل فيه.

---

(1) قرية قديمة، ذكرها أصحاب المعاجم المتقدمون مثل ياقوت الحموي وعرام السلمي، وقد غلب اسم الصفراء في ما بعد على وادي بدر الذي تقع فيه فسمي وادي الصفراء الذي ينبع من المناطق الغربية للمدينة النبوية ويتجه غربًا نحو البحر الأحمر ليصب بالقرب من موقع الجار الأثري على بعد 10 أميال من بلدة الرايس. انظر **قلب الحجاز** للبلادي، ص 146.

كنا قد توقّفنا مع المفتي بالقرب من بئر، تحت أشجار نخيل بديعة، عندما فوجئنا بوجود جَمْع من النساء يحيط بنا، كلهنّ تقريبًا شابات وحسناوات، جئن ينهَلن الماء. كنّ سافرات الوجوه، ولم يفزَعْنَ من وجودنا على الإطلاق. ينتسبن، كما أخبَرننا، إلى قبيلة حرب التي يسكن فخذ صغير منها في الصفراء. لم أكن قد سمعت أحدًا قط يتكلم اللغة العربية بأسلوب سليم إلى هذا الحدّ، وبهذا القدر من العذوبة. كنت سأستغرق مطولًا في الحديث مع هؤلاء البدويات اللطيفات لولا أن المفتي الذي رأى في وجود الشابات مسًّا بمقامه أشار إليَّ بالرحيل .

تسافر القوافل، وحتى الحجاج الذين يسافرون فُرادى، ليلًا، ويجد من يحبّ مشاهدة البلد هذا الأمر عادةً مزعجة. في الثامن عشر، خيّمنا في وادي زقاق[1] ومن هناك سِرنا في خط مستقيم بموازاة ذُرى الجبال شديدة الانحدار. في التاسع عشر، توقفنا عند جبل أيوب، بالقرب من آبار مستورة. في العشرين، توقفنا قليلًا في رابغ، وهي محطة كبيرة للقوافل، تبعد ثمانية أو عشرة كيلومترات عن البحر الذي كنا نشم أنسامه الملحية.

(1) كتبها : .Zozag انظر رحلة بوركهارت، **الهلابي والشيخ**، ص282

في اليوم التالي، الحادي والعشرين، وصلنا إلى محطة جميلة تسمى خُليص[1]؛ أعجبنا فيها على وجه الخصوص غزارة المياه التي تروي هذه الرياض المزروعة بأشجار النخيل ونقاءها، بعدما أمضينا ثلاثة أيام ونحن نجوب بلدًا قاحلًا، وعبرنا للتو فجًّا وعرًا كل الوعورة يدعى ثنية الخليص. في الثاني والعشرين، نصبنا خيامنا في وادي الجَموم[2]، الذي يفضي إلى وادٍ آخر يدعى وادي فاطمة[3]، وسط رياض جميلة ملأى بأشجار النخيل والأشجار المثمرة.

---

(1) قال بوركهارت: تقع قرية خُليص في سهل واسع حيث تنمو في أجزاء مختلفة منه بساتين النخيل، وتزرع الذرة والبامية والدخن، وتتناثر القرى الصغيرة هنا وهناك ويطلق على هذه التجمعات معًا اسم عام هو خليص، وهي المركز الرئيسي لعرب زبيد، وهو أحد فروع قبيلة حرب ومقر شيخهم. بوركهارت، **الهلابي والشيخ**، م. س، ص274 ـ 275. وانظر عنها: **معجم معالم الحجاز** للبلادي، أو كتاب **خليص** للمعبدي.

(2) الجموم: كانت قديمًا عينًا متدفقة غزيرة المياه في مر الظهران (وادي فاطمة)، على طريق مكّة إلى المدينة على بعد 22 ميلًا. كانت محطة رئيسية للحجاج فتكونت عليها قرية ذات سوق عامرة. وفيها اليوم إمارة مر الظهران تابعة لمكّة. انظر عاتق بن غيث البلادي، **معجم معالم الحجاز**، مكّة، دار مكّة، ط1، 1399هـ/ 1979م، ج2، ص 176 ـ 177.

(3) وادي فاطمة: تاريخيًا وادي فاطمة نسبة إلى فاطمة الخزاعية من خزاعة **حكام مكّة** سابقًا، ونزلوا به ويعدون السكان الأصليين للوادي، وبعدهم الأشراف من ذوي بركات وذوي حسين وذوي راجح. وسكنت خزاعة فيه ما يقارب ألف عام. والأشراف أيضًا ما يقارب 800 عام وعيونهم وقراهم معروفة إلى الآن. وكان قديمًا يسمى وادي مر الظهران.

لبسنا ثياب الإحرام هناك، لأنه لم يعد يفصلنا عن مكّة إلا يوم واحد. توضأتُ والمفتي والمقدّم، وتلَونا الأدعية التي يدعو بها الحجاج المتوجهين إلى مكّة بنية أداء فريضة الحج.

والإحرام هو الزيّ الذي ينبغي على الحاج ارتداؤه عندما يقترب من مكّة، يتألف من قطعتين من القماش القطني الخشن أو من الكتان أو من الصوف، بلون رمادي أو أبيض. يلفّ إحداهما على خصره، ويلفّ الأخرى على رقبته وكتفيه، ويترك ذراعه الأيمن مكشوفًا. ينزع عنه أي لباس آخر. تُشترى أقمشة الإحرام خصيصًا للمناسبة وتفتقر لأي زينة. يبقى الرأس حاسرًا؛ والحذاء مكشوفًا عند كاحل القدم. ما دام الحاج محرمًا (يرتدي الإحرام)، لا يجوز له حلق شعره، وعليه أن يمشي بوقار على الدوام، وألا يقتل أي كائن حيّ (حتى بعض الحشرات)، وعليه أن يمتنع عن الشجار وعن كل صلة بالنساء.

كان ينبغي عليّ أن أمضي قسطًا من الليل مستمعًا إلى تلاوة المفتي للقرآن الكريم. بدأت أعاني من البرد في ثياب إحرامي، وسمح لي مرافقي أن أشتمل ببرنس حتى الصباح. يُصاب العديد من الحجاج بأمراضٍ مميتة في الغالب، خلال مدة ارتدائهم ثياب الإحرام، إما بسبب البرد، وإما بسبب الحرّ الشديد. كان الحج قبل الإسلام يقام في

الخريف، وكان الإحرام خلال هذا الفصل يتسبب بأضرار أقل. لكنْ بعد أن أقر النبي محمد ﷺ السنة القمرية، وحدّد الحج في شهر ذي الحجة، وما دامت السنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية أحد عشر يومًا فقد أصبح الحج يأتي، خلال ثلاثة وثلاثين عامًا، على التوالي في جميع أوقات السنة. يمكن للعجائز والمرضى أن يغطوا رؤوسهم مقابل صدقة يؤدونها للمسجد. ويمكن للمرء اقتناء مظلة أو الاستظلال بمنديله من الشمس.

في فجر اليوم التالي، الثالث والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر (الموافق للتاسع من ذي القعدة)، بدأنا يومنا بصلوات شاركتنا فيها زوجة المفتي التي نزعت كل زينتها، والتفت بالكامل بإزار فضفاض من الصوف الأبيض[1]. امتطينا جمالنا، فما زال أمامنا طريق طويل لنمشيه. كلما دنونا من مكّة، أصبح الوادي أكثر قحطًا. وعندما وصلنا إلى المكان المسمى ميمونة ترجّلنا. كان على مقوّمنا أن يتوجه مع جمالنا، ومرافقينا وأمتعتنا إلى خان يقع في الحي الشاميّ الواقع بالقرب من المسجد الكبير، وأن ينتظر عودتنا هناك. بعد مرور ساعة تقريبًا، شاهدنا مكّة التي

(1) يفرض على النساء الحاجّات كذلك لبس الإحرام، ويتألف من إزار يستر الوجه ومن حائك كبير، والحائك ربطة نسيج من الصوف أو من القطن، يفترض أن يلفهن بالكامل، من دون أن يكشف لا اليدين، ولا الكعاب.

كانت تحجبها عنا الجبال المحيطة بالوادي الذي قدمنا منه من جهة الشرق.

ما إن دخلنا حي باب العمرة الذي يفضي شارعه إلى المسجد الكبير، حتى أحاط بنا عدة أشخاص يسمى واحدهم المطوّف[1]، عرَفوا أننا ننوي زيارة الكعبة عندما رأونا بلباس الإحرام، ثم أدخلونا إلى الحرم عبر باب السلام.

(1) (من يجول مع الحجاج)، هم المرشدون المكلفون بمرافقة الحجاج وإرشادهم إلى شعائر الحج. أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى شعيرة الطواف، وهي جولة دائرية تتم حول الكعبة.

الفصل الثالث عشر

- أصل الحج
- المسجد
- الكعبة
- بيت الله
- المقامات الواقعة حول الكعبة

حان الوقت، على ما أعتقد، لأطلِع القارئ على نبذة موجزة عن أصل الحج إلى مكّة.

غاية الحج هي الكعبة، (المنزل المربَّع: Domus quadrata)[1]، وهو اسم أطلقه عرب الجاهلية على بعض الأوابد التي كانوا يطوفون حولها مبتهلين إلى آلهتهم[2]. وتذكر التقاليد الإسلامية أن الله أمر إبراهيم عليه السلام أن

(1) وردت باللاتينية في المتن الأصلي. وانظر كتاب **حكام مكّة**، دي غوري، م. س.

(2) نقل ابن سعيد في **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**، ط. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان الأردن، 1982م، ج1، ص 80 عن الشهرستاني في **الملل والنحل** قوله عن العرب في الجاهلية: «وكانوا يحجون ويطوفون سبعًا، ويُهْدون، ويرمون الجمار، ويمسحون الحجر، ويحرِّمون الأشهر الحرم فلا يغزون ولا يقاتلون فيها إلا طيئ وخثعم وبعض بني الحارث بن كعب، فإنهم لم يكونوا يحجون ولا يحرمون الأشهر الحرم». انظر **الملل والنحل** 3/ 329.

يعيد بناء الكعبة، التي بناها آدم عليه السلام في الأصل وهدمها الطوفان. امتثل إبراهيم عليه السلام لأمر ربه، وساعده في إتمام هذا العمل ابنه إسماعيل عليه السلام، الذي كان يسكن، مع والدته هاجر مكّة. وتذكر الرواية العربية أيضًا أن الملاك جبريل حمل إلى إبراهيم عليه السلام الحجر الأسود، ليستخدمه مرتقى يصعد عليه لأنه كان يرتفع كلما ارتفع البناء عن سطح الأرض. هذا الحجر الذي ثبِّت في إحدى زوايا الكعبة، يتمسح به جميع الحجاج ويلثمونه.

استولى العرب العماليق[1]، بعد موت إسماعيل عليه السلام على الكعبة وعلى بئر زمزم الذي انبجس منه الماء بأعجوبة، استجابةً لدعاء هاجر، حين أوشك ابنها إسماعيل عليه السلام على الموت من العطش. وتدين مكّة بوجودها إلى هذه البئر التي لا تنضب؛ إذ يتعذر وجود مياه عذبة غزيرة غزارة بئر زمزم في أي مكان آخر في البلاد.

---

(1) قال صاعد في **طبقات الأمم**، ص 53 ـ 54: «الأمة العربية فرقتان: بائدة وباقية، فأما البائدة فكانت أممًا ضخمة كعاد وثمود وطسم وجديس والعمالقة وجُرهم...» وأشار جرجي زيدان في كتابه **العرب قبل الإسلام** إلى العمالقة بوصفهم قدماء العرب سكان شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سيناء، ويرى أنّ منهم الشاسو أو الهكسوس الذين فتحوا مصر. وقال ابن سعيد في النشوة 1/ 45 «وآوَى إليه (يقصد المعبد الذي بناه هود في دمشق) من بَقِيَ مِن قَوم عَادٍ، الذين أخرَجَهُمُ العَمَالِقَةُ() وَجُرْهُمُ مِن مَكَّةَ، وَكَثُرَ نَسْلُهُم بِالشَّام. وَتَوالَتْ مُلُوكُهُم، فَبَنَوْا في مكانِ دِمَشْقَ «إِرَمَ ذَاتَ العِمَادِ» على حِكَايَةِ ما بَلَغَهُمْ عَنِ المَدِينَةِ التي كانتْ بِالأَحْقَافِ». انظر أيضًا النشوة 1/ 54 ـ 66.

تعرضت الكعبة خلال ألفي عام للهدم عدة مرات بسبب الفيضانات، (كما يقول المؤلفون العرب أيضًا)، ثم أعاد بناءها في نهاية الأمر عربي جاهليّ يدعى عمرو بن لُحَيّ[1]، ونصب فيها صنمًا يدعى هُبَل[2]. رغبت كل قبيلة من قبائل عرب الجاهلية، منذ ذلك الحين، بأن تحظى بمعبود لها في الكعبة. كان رهط قُصَيّ[3] أول من شيد المنازل حول الكعبة. أطلِق على هذه المجموعة من البيوت آنذاك اسم بكّة[4]. واحتفظت قريش بالرياسة على الكعبة

---

(1) من خزاعة، وهو أول من عظم بمكّة منها، ورئس وأخذ مفتاح الكعبة واشتهر. ولم تزل الرياسة وولاية البيت في بني إسماعيل إلى أن انتهت إلى عمرو المذكور، فدانت له العرب، واتخذته ربًا تمتثل كل ما أمر به في أديانها. وقال صاحب **الروض الأُنُف**: «قال رسول الله ﷺ: **قد عرفت أول من سيَّب السائبة، ونصب النُّصب عمرو بن لحي وجدته يؤذي أهل النار بريح قُصبِه**»، السهيلي، **الروض الأنف**، 1/ 349 ـ 350؛ وانظر **صحيح مسلك**، الكتاب 51، الحديث 50 ـ 51 (ص 2191)، و**نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**، ج1، ص 210 ـ 213.

(2) في **الروض الأنف** أنه كان يلت السويق (طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير) على صخرة اللات ثم أمرهم بعبادتها. وقد مُثِّلت في الجاهلية بعدة أشكال منها الشكل الذي ذكره ابن الكلبي وهو الصخرة المربعة البيضاء، وكانت في الطائف. الأصنام 16، **الروض الأنف** 1/ 753.

(3) قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر. ونقل صاحب **نشوة الطرب** 322، 1 عن البيهقي في **كتاب الكمائم**: أن قريشًا لم تكن تسمى بهذا الاسم حتى قرشها قصي بن كلاب رئيسها ـ أي جمعها حول الحرم ـ فعظمت من ذلك الحين. وقد أرخت العرب باجتماعها لقصي وأخذه مفتاح الكعبة.

(4) جاء في **نشوة الطرب**، 1/ 325: ولما استقر بقصي القرار بمكّة خاف على =

بعد قصي. وقريبًا من تلك المدة تعرضت الكعبة لحريق[1]، فأقام القرشيون في المكان نفسه بناء خشبيًا، وضعوا في أسفله تمثال هُبل، كبير الآلهة عند المشركين، وأحاطوا هذا التمثال بعدد كبير من الأصنام الأخرى.

قام عبد المطلب بن هاشم، جدّ النبي محمد ﷺ، بإعادة حفر بئر زمزم. وأُعيد بناء الكعبة من حجر. وبنى القرشيون حول الكعبة مدينة صغيرة، وكان ينبغي ألا يتجاوز ارتفاع سطوح بيوتهم ارتفاع الكعبة.

وعندما عاد النبي محمد ﷺ ظافرًا إلى مدينة أجداده، هدم أصنام الحرم، وأبطل عبادتها. إلا أنه أقر حج العرب القديم، معلنًا أن زيارة الكعبة، بيت الله، تعدّ عملًا صالحًا لكل مسلم يقوم به، وقد بيَّنَ الله، في سورة من القرآن الكريم، المناسك التي ينبغي اتباعها في الحج. كان الخليفة عمر رضي الله عنه أول من بنى مسجدًا حول الكعبة. ولو أردت أن أذكر أسماء الأمراء المسلمين الذين

= قريش من التحاسد والتباغض في المجاورة مع المكاثرة، فنظر المستحقين لقرب البيت القادرين على ذلك قد نازعهم الفريق الآخر، فألزمهم السكنى بمكّة والحرم فيما قرب من المدينة والبطاح، وسماهم: قريش البطاح، وأخرج الآخر إلى ظواهر مكّة، وسماهم: قريش الظواهر، فصارت كنانة وخزاعة وقريش الظواهر بادية لقريش البطاح. وانظر كتاب **حكام مكّة** لجيرالد دي غوري، ترجمة رزق الله بطرس ومراجعة وتعليق د. صباح جمال الدين، ط. دار الوراق، لندن، 2010م، ص17 ـ 18.

(1) انظر كتاب **حكام مكّة**، لجيرالد دي غوري، الترجمة العربية، م. س، ص 18.

عملوا على توسيع المسجد وتحسينه، أو الذين أعادوا بناءه، شأنه شأن الكعبة نفسها؛ لأن كليهما تعرض للهدم في أزمنة مختلفة بسبب الفيضانات والحرائق، لو أردت أن أقص ذلك، لطال بنا الأمر.

أعيد بناء الكعبة، وبئر زمزم، وأجنحة أتباع المذاهب الأربعة، وصفوف أعمدة المسجد، ورُمِّمت كما نراها اليوم في عام 1074 للهجرة، في منتصف القرن السابع عشر الميلادي .

اكتفى السلاطين العثمانيون، ونواب الملك المصريون منذ ذلك الحين بترميم الأضرار التي تسبب بها السعوديون في بداية هذا القرن[1].

تقع الكعبة والأجنحة القريبة منها ذوات الأشكال المختلفة في منتصف ساحة كبيرة تأخذ شكل متوازي الأضلاع، يبلغ طوله ما يقارب 180 مترًا، وعرضه 130 مترًا.

يمتد رتل من ثلاثة وأربعة صفوف من الأعمدة حول هذه الساحة، وهي أعمدة تدعم أقواسًا قوطيّة تعلوها قبب

(1) لم يحدث السعوديون أي أضرار عند دخولهم مكّة المكرمة إبان الدولة السعودية الأولى، بل إن الإمام سعود بن عبد العزيز رحمه الله أحسن إلى فقراء مكّة وأهلها. وقد أشار إلى استقامتهم وحسن تعاملهم علي باي العباسي الذي كان شاهد عيان على دخولهم.

صغيرة مطلية بالجص المُحفَّر من الداخل وبالكلس من الخارج. لا تتشابه هذه الأعمدة لا من حيث المادة ولا من حيث الشكل فبعضها رخاميّ، وبعضها سُمَّاقيّ، وبعضها الآخر غرانيتيّ، وغالبيتها مصنوع من حجر. يبلغ متوسط ارتفاعها ستة أمتار وقطرها حوالى ستين سنتمترًا.

أخبرني مطوّفي أن عددها يبلغ ستمئة عمود، وأحصى عدد القبب الصغيرة بمئة وخمسين. لم أجد هذا العدد مبالغًا فيه. وتتدلى من الأقواس مصابيح تنار كل مساء. أما الأرض فقد رصِّفت الأعمدة ببلاط غير متساوٍ ومتفكِّك.

يلج الناس إلى هذا الحرم عبر تسعة عشر بابًا، موزّعة على نحو غير منتظم. يبدو بعضها، لاسيما باب السلام، الذي يكون من خلاله أول دخول للحجاج إلى الحرم، بعظمة أبواب أجمل مساجد القاهرة. تنتصب حول الحرم سبعة مآذن مستديرة ومربعة الزوايا، مطلية بألوان مختلفة، ينادي منها المؤذنون إلى الصلاة. لم أسمع في أي مكان أصواتًا بهذا القدر من الجمال وتجويدًا بهذا القدر من الرخامة .

ازدانت الأسوار الخارجية، التي تحاذيها صفوف الأعمدة، بكتابات بديعة نقشت بحروف مذهّبة أو نافرة. كما توجد كتابات نافرة على ألواح رخامية ضخمة فوق الأبواب تشير إلى اسم الأمير الذي شيدها وتاريخ بنائها.

تمتد سبع طرقات مرصوفة من صفوف الأعمدة وصولًا إلى الكعبة. وتنخفض أرض المسجد عن أرض المدينة. ننزل إليها بأربع أو خمس درجات.

لا تقع الكعبة، كما أسلفت، في منتصف الساحة تمامًا. وهي عبارة عن بناء ضخم يبلغ ما يقارب اثني عشر مترًا طولًا، وثمانية أمتار عرضًا وتسعة أمتار ارتفاعًا. وهي تقوم على قاعدة مائلة بسماكة ستين سنتمترًا. سطحها مستوٍ، وتوجد بوابة وحيدة في الواجهة الشمالية[1] تفضي إلى الكعبة، وترتفع ما يقارب المترين عن الأرض. وكُسيت هذه البوابة بصفائح من فضة ونقوش مذهّبة.

إن الحجر الأسود الشهير مثبت في زاوية البناء، على مقربة من البوابة، في الزاوية الجنوبية ـ الشرقية من الكعبة. وهو يتخذ شكلًا بيضويًا غير متناسقٍ مكون من عدة قطع من صنف واحد، تفككت بفعل النار، وأعيد تجميعها في قالب اسمنتي محاط بطوق من الفضة. يجعل هذا الحجر يبدو مجوفًا، وهو الذي يفترض أنه كان بارزًا في البدء، بسبب تمسح المؤمنين له بالأيدي أو بالشفاه منذ قرون.

يوجد حجر آخر في الزاوية الجنوبية ـ الغربية على الحجاج أن يلمسوه دون أن يلثموه.

(1) الواقع أنها في الواجهة الشرقية للكعبة.

أما الميزاب فيوجد في الجهة الشمالية من الكعبة، ويقال: إنه من الذهب المُصمت، يصرِّف ماء المطر الذي يهطل على السطح .

يوجد في الأسفل بلاط رخاميّ، محاط بفسيفساء. هناك دفن إسماعيل عليه السلام ووالدته هاجر. يرتفع في شرقي الكعبة وغربها جدار نصف دائري يسمى الحطيم، يبلغ ارتفاعه ما يقارب المتر والنصف، مكسوًا برخام نُقِشت عليه كتابات. يدعى الركن الموجود بين هذا البناء والكعبة بالحجر، وهو مقدّس كأرض الكعبة نفسها.

تكسو الكعبة بالكامل كسوة فضفاضة واسعة من الحرير الأسود. تُجدَّد كل عام في موسم الحج. وتُصنع في القاهرة، على نفقة السلطان العثماني. أما القسم المحاذي للباب فمُطعَّمٌ بالفضة، وفتحت فيه منافذ للحجر الأسود والحجر الآخر. وترجع عادة كسوة الكعبة بسِجاف إلى حقبة عرب الجاهلية.

يعدّ حق تقديم الكسوة للكعبة إثباتًا للسيادة. ينزَع الرداء القديم في الخامس والعشرين من ذي القعدة من كل عام، وتبقى الكعبة مكشوفة خمسة عشر يومًا، حتى العاشر من ذي الحجة، يوم عودة الحجاج من عرفات إلى وادي منى.

يُفتَح باب الكعبة ثلاث مرات خلال العام: في العشرين من رمضان، والخامس عشر من ذي القعدة والعاشر من محرّم.

أما الساحة حول الكعبة فهي من الرخام الذي ينخفض عن مستوى الباحة؛ وتحيط بالرخام الذي يأخذ شكلًا بيضويًا أعمدة من البرونز المذهب تتصل بسلاسل تتدلى منها مصابيح زجاجية تنار في الليل. يوجد بلاط آخر بعيدًا عن هذه الأعمدة يبلغ عرضه خمسة أمتار، ويرتفع عن الأول بقليل؛ وأخيرًا يوجد بلاط ثالث مرتفع قليلًا، ويبلغ عرضه ما يقارب اثني عشر مترًا.

علينا إذًا أن ننزل درجتين عريضتين لنطأ أرض الكعبة. ترتفع أربعة أجنحة صغيرة في النطاق الخارجي، تدعى مقامات[1]، على شكل معابد هندية، مفتوحة من كل الجهات ومدعَّمة بدعائم مربّعة في غاية الرشاقة. يستقر ممثلو المذاهب الأربعة هناك:

يقع المقام المالكي في الطرف الجنوبي؛ ويقع المقام الحنفي في الطرف الغربي؛ ويقع المقام الحنبلي في الطرف الشمالي، مقابل الحجر الأسود؛ ويقع المقام الشافعي في الطرف الشرقي، فوق بئر زمزم. يصطف المسلمون الذين يقبلون للصلاة قرب الكعبة حول مقام مذهبهم وباتجاهه. على النساء أن يجلسن خلف المقام الحنبلي. وألا يقمن بالطواف حول الكعبة إلا ليلًا.

بئر زمزم هو عبارة عن بناء مربع يقع في أسفل المقام

(1) مكان الشرف.

الشافعي. اكتست جدرانه ببلاط رخاميّ نقِشت عليها كتابات جميلة. ثبِّتت فوهة البئر بخرزة يبلغ ارتفاعها مترًا ونصف. ويبلغ قطرها ما يقارب ثلاثة أمتار. يخرَج الماء بدلاء جلديّة معلقة بسلاسل صغيرة. تعجّ الغرفة التي يوجد فيها البئر باستمرار بالحجاج أو بسكان المدينة. لا يتناقص الماء أبدًا، إذ يغذي البئر نبع يسري في مجرى تحت الأرض. لون الماء ضارب إلى البياض، وهو فاتر قليلًا، لكنك عندما تشربه تجده عذبًا. بالقرب من الغرفة التي يوجد فيها البئر توجد بركة رخامية تملأ بماء زمزم باستمرار. فتِحَت في أعلى هذه البركة نافذة ذات قضبان يتدلى منها بسلسلة إناء من قصدير يمكِّن الحجاج من سحب الماء بواسطته دون أن يضطروا إلى دخول غرفة البئر. ينبغي تقديم الماء للحجاج ولكل من يطلبه مجانًا، لكن جميع خدّام المسجد يبيعونه.

يُشرب هذا الماء علاجًا لجميع العلل. يمكن للمرء الحصول عليه لنفسه ولذويه عند المرض. تباع القوارير بثمن باهظ. كما تباع أكفان غُمست بماء زمزم يقال إنها تقي أولئك الذين يكفنون بها من نار جهنم.

يوجد بناءان غير متقنين في الطرف الشمالي ـ الشرقي من البئر، يطلق عليهما اسم القبّتين، يحويان الجرار، والمصابيح، ولوازم المسجد. ينتصب إلى جانبهما المدرَج

الذي يقرَّب من باب الكعبة في اليوم الذي يتعين فتحه فيه. وهو ينزلق على عجلات عريضة وواطئة للغاية.

يرتفع باب مقنطر منعزل باتجاه الغرب قليلًا، يدعى باب السلام، يبلغ ما يقارب أربعة أمتار عرضًا وستة أمتار ارتفاعًا.

يقع إلى جانبه مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ وهو محراب أنيق أقيم في المكان الذي أقام فيه إبراهيم خلال مدة بناء الكعبة.

أخيرًا، وفي الطرف الشمالي ـ الشرقي من هذا المحراب، أي مقابل باب الكعبة، يقع المنبر، منبر المسجد، وهو بناء أنيق من الرخام الأبيض مزدان بزخارف منقوشة ومذهبة. تعلو المنبر قبة جرس مُستدِقّة الطرف، مثمّنة الأضلاع ومذهّبة.

الفصل الرابع عشر

- متابعة وصف الحرم المكيّ
- الشعائر الدينية المفروضة على الحجاج

الآن وقد تعرَّفَ القارئ إلى شكل المسجد، والكعبة والأبنية المجاورة؛ أعود والحالة هذه للحديث عن دخولي الحرم عبر بوابته الرائعة، باب السلام، برفقة المفتي، والمقدّم، يصطحبنا المطوّفون. عندما رأينا الكعبة، كان علينا أن نسجد ونشارك المطوّف في الوقت عينه تلاوة بعض الأدعية.

اقتربنا من الكعبة عبر طرقات مرصوّفة، وعبرنا الباب المقنطر المنعزل الذي يدعى باب السلام. سجدنا أمام الحجر الأسود، دعونا بأدعية جديدة، وصلينا عدة ركعات. لمسناه بأيدينا اليمنى ولثمناه. ثم طفنا سبع مرات حول الكعبة بدءًا من اليمين نحو الشمال، قمنا بأول ثلاث جولات على عجل إحياء لذكرى هجرة النبي محمد ﷺ من مكّة إلى المدينة. نلمس بيدنا الحجر الأسود، ونلثمه في كل جولة؛ نسند صدورنا إلى جدار الكعبة في الحيّز الواقع بين الباب والحجر الأسود؛ ونطلب هناك، والأذرع

مرفوعة نحو السماء، بصوت عالٍ المغفرة لخطايانا. كذلك سجدنا ودعونا بالقرب من مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام. أخيرًا، دخلنا الغرفة التي يوجد فيها بئر زمزم. دعونا من جديد، ونهلنا من مائه مرات عديدة. انتهت هناك الشعائر المفروضة داخل المسجد.

تبعنا مطوّفينا، الذين أخرجونا من الحرم عبر باب الصفا، وطلبوا منا الركوع على درجات بناء مؤلف من ثلاثة أقواس يجمعها عند الرأس عارضة واجهتها نحو المسجد.

قمنا بعد ذلك بأداء شعيرة السعي التي تقتضي اجتياز مسعى طويل يمتد حوالى أربعمئة متر، يسمى وادي الصفا، يفضي إلى أكمة تدعى المروة. يوجد في قمتها حجر نرتقي درجات لنصل إليه. ينبغي على الحاج أن يسعى في المسافة الواقعة بين الصفا والمروة. عليه القيام بهذا السعي سبعة أشواط، وهو يدعو بصوت مرتفع إحياء لذكرى سعي هاجر المحموم، حين خشيت على ابنها إسماعيل من الموت عطشًا. بعد أن انتهينا من أداء تلك الشعيرة المضنية، أدخلنا مطوّفينا صالونات حلاقة، واقعة بالقرب من المروة حيث حلقوا لنا شعورنا حتى منتصف الرأس وهم يرددون بعض الأدعية. يمكن للحجاج بعد الانتهاء من هذه الشعيرة

أن يلبسوا ثيابهم المعتادة، على أن يعاودوا لاحقًا الإحرام لدى القيام بالزيارة الإجبارية لموقع عمرة[1]. مع أن رفيقي العزيز، الذي أبديت إعجابي بصلابة عوده على الرغم من كبر سنّه، كان مرهقًا إلا أنه رأى وجاراه المقدّم في ذلك أنه من المناسب إتمام أداء الشعائر التي تقتضي الإحرام في اليوم نفسه، وانطلقنا نحو عمرة، وفيها مصلى، وتبعد ما يقارب ستة أميال عن مكّة، على طريق المدينة النبوية. وقد جاء في السيرة النبويّة أن النبيّ ﷺ كان يؤثر أداء الصلاة في ذلك المصلّى. توجهنا إلى ذلك المصلى ونحن نردد بعض الأدعية، ثم استرحنا، وعدنا أدراجنا إلى المروة ونحن نتلو آيات قرآنية. كان ينبغي علينا، بعد أن أنهى الحلاقون حلق شعورنا، أن نسعى سبعة أشواط بين

(1) يقصد المكان المسمى بالتنعيم، وفيه مسجد يعد أحد مواقيت الإحرام لأهل مكّة المكرمة، لما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «نزل النبي المحصب (اسم مكان)، فدعا عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: (**اخرج بأختك من الحرم إلى التنعيم فلتهل بالعمرة، ثم لتطف بالبيت، فإني أنتظركما هاهنا**)، قالت: فخرجنا فأهللت، ثم طفت بالبيت وبالصفا والمروة، فجئنا رسول الله وهو في منزله في جوف الليل، فقال: (**هل فرغت؟**) فقلت: نعم، فأذّن في أصحابه بالرحيل، فخرج فمر بالبيت فطاف به قبل صلاة الفجر، ثم خرج إلى المدينة». يقع المسجد في الجهة الشمالية الغربية من مكّة على طريق المدينة النبوية، وتقدر المسافة بينه وبين باب العمرة بـ 6148 مترًا. ويسمى المسجد اليوم مسجد عائشة.

الصفا والمروة، والطواف سبع مرات حول الكعبة. ولما انتهى كل ذلك عدنا إلى خاننا، منهكين من التعب. لقد قطعنا بالتأكيد ما يزيد عن أربعين ميلًا طوال اليوم، ولم نتناول سوى بضعة حبات من التمر وبعض قطع الحلوى واحتسينا بضعة فناجين قهوة.

دفعنا بسخاء لمرشدينا الذين تعهدوا بإيجاد مسكن ملائم لنا طوال مدة إقامتنا في مكّة.

في اليوم التالي، الجمعة في الرابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، عدنا إلى المسجد، أدينا الصلوات المعتادة، وطفنا سبعة أشواط حول الكعبة، شعيرة الطواف لا تفرض إلا لمرة واحدة، لكن تتعلق بها مغفرات كبيرة؛ حتى إن المسلمين الورعين، ومن بينهم رفاقي، يكررونها يوميًا خلال مدة إقامتهم في مكّة، سواء قبل الحج أو بعده. توجهنا في ما بعد لزيارة المساكن التي اقترحها علينا مرشدونا. واستأجرنا الطابق الثاني من منزل تشكّل جدرانه سورًا للجزء الشرقي من الحرم، وتشرف نوافذه المقابلة للمدخل على الباحة الداخلية له. يكثر الطلب على هذه المساكن دون غيرها، لذلك كان علينا أن نستأجرها بدرهم ونصف في اليوم (ما يعادل ثمانية فرنكات تقريبًا)، وهو سعر باهظ بسبب موقع الشقة. هيأت زوجة المفتي لكل واحد منا غرفته الخاصة به ومطبخها، ولم يسعني سوى

إبداء ارتياحي لانضمامي إلى هذه الأسرة الرائعة. ككل يوم جمعة، تُقام صلاة الظهر جماعةً في المسجد، وتليها الخطبة.

في ما يخصّ الصلاة، يتحلّق جميع الحجاج وآخرون من سكان المدينة حول الكعبة، ويتوجهون جميعًا نحو بيت الله. هذا هو المكان الوحيد على الأرض الذي يستطيع المسلمون، مجتمعين، أن يتلاقوا وجهًا لوجه في أثناء الصلاة. لأنه ينبغي على جميع المسلمين المنتشرين في جميع أصقاع الأرض أن يتوجهوا في صلاتهم نحو الكعبة؛ بناء عليه، يتوجه بعضهم إلى الشمال، وبعضهم الآخر إلى الجنوب، إلى الشرق أو إلى الغرب، تبعًا لموقع البلدان التي يسكنوها بالنسبة إلى الكعبة.

يجلس الإمام بالقرب من باب الكعبة. ويحظى علماء المدرسة السليمانية[1]، وهم عمومًا من أجِلَّة الشيوخ، بامتياز الوعظ من على منبر المسجد الكبير.

يعتم الخطيب عمامة بيضاء كبيرة، ويمسك بيده عصا طويلة بيضاء. ويخطب من على المنبر للسلطان العثماني، ولباشا مصر، وللشريف الأكبر.

يُفرَش سجاد وحصائر من أجل الصلاة، سواء فوق الأجزاء المفروشة بالرمل من الباحة، أو فوق شارع

(1) المدرسة السليمانية

الأعمدة؛ فضلًا عن أن في وسع كل حاج إحضار سجادته أو حصيرته معه.

يقال: إن المسجد يمكن أن يتسع لأربعين ألف شخص؛ لا أعتقد أنني رأيت أكثر من عشرة إلى اثني عشر ألف شخص مجتمعين.

كان مشهد الحجاج وهم يطوفون حول الكعبة، مساءً، تحت ضوء القناديل، ويرددون أدعيتهم بصوت مرتفع مشهدًا مهيبًا يبعث على التقى.

ولكننا كنا نسمع صيحات وضحكات مئات من الأشخاص، رجال، ونساء وأطفال، تجمعوا تحت الأعمدة، وانصرفوا إلى اللعب، وحتى إلى المنكرات التي تثير الاشمئزاز. لم أستطع تصديق ما رأيته.

يقوم الكثير من الحجاج بالطهي تحت الأعمدة المحيطة بالباحة، خارج أوقات الصلاة. تبيعهم نسوة خبزًا وبلحًا، ويقوم أصحاب المقاهي ببيعهم قهوتهم مع الحلويات؛ فيما يقوم الحلاقون بمهمتهم.

كما يقوم الطلبة (مسلمون يجيدون القراءة والكتابة) بإلقاء المحاضرات الدينية، تحت الأعمدة، ويعمد مدرِّسون إلى تعليم القرآن لأطفالٍ يسمِّعون درسهم مطلقين صيحات متنوعة.

فيما يقوم طلاب آخرون، يجلسون بالقرب من باب السلام، بكتابة حُجُب يقدَّر أجرها حسب طول الأدعية.

يرفرف عدد لا يحصى من الحمام بلا انقطاع في باحة المسجد. وقد بُنيَت له برك صغيرة ليشرب منها، وتبيع نسوة بزورًا يشتريها الحجاج ويقدمونها للحمام رفقًا به. هذا الحرم هو، في الوقت نفسه، مكان عبادة، وجامعة، ومدرسة، وسوق، وساحة عامة. يخلو المسجد، في الساعة التاسعة، ولا يبقى فيه إلا أكثر المسلمين ورعًا ممن يُحيون الليل فيه بالصلاة، ويبقى فيه أيضًا أغلبية الحجاج الهنود الفقراء الذين يقيمون تحت صف الأعمدة طيلة مدة إقامتهم في مكّة.

قبل أن أبدأ بوصف مكّة، ينبغي أن أكمل المعلومات التي تمكَّنتُ من جمعها حول الإدارة الداخلية وإيرادات الحرم. يدعى القائم على الحرم بنائب الحرم؛ وتحفظ مفاتيح الكعبة في عهدته.

يدعى الرئيس الثاني بآغا الطواشية[1]. فقد جرت العادة

(1) جاء في رسالة «تحفة المحبين للمحبوب في تنزيه مسجد رسول الله من كل خصي ومجبوب» للعلامة الشيخ جمال الدين القطان ما نصه بعد كلام طويل. «وإنما كان القائم بخدمة الكعبة الشريفة والحجرة المنيفة في أيام الخلفاء والدولة العباسية الفقهاء والصوفية وأهل العلم والفضل. وهؤلاء الطواشية حادثون في آخر دولة الأكراد بني أيوب في أيام نور الدين الشهيد بواسطة بعض الخدام الطواشية الذين في خدمته. سعى في ذلك واستعان ببعض الوزراء، فأجابه السلطان إلى ذلك وجعل اثني عشر طواشيًا لا غير. وشرط أن يكونوا حفاظًا للقرآن العظيم وربع العبادات، وأن يكونوا حبوشًا، وإن لم يكن فأروامًا، فإن لم يكن وعدموا فتكاررة، وإن لم يوجد فهنود. =

أن يقوم عبيد مخصيون بحراسة الكعبة، وأغلبيتهم سود من السودان، ممَّن جرى خصيهم[1] وهم لا يزالون أحداثًا، ووضعوا تحت إدارة قدامى الخصيان. وهم يعتمون عمامات بيضاء، ويرتدون أثوابًا طويلة (قفطان) مشدودة إلى قاماتهم بحزام جلدي؛ ويحملون بأيديهم عصي طويلة من خشب أبيض، يبلغ عددهم خمسين بين شبان وعجائز. يعهَد إليهم إرشاد الأشخاص إلى الشعائر التي تقام حول الكعبة. ينتفعون بإيرادات ثابتة، ويُتاجرون بالأدعية، وبماء زمزم، وبالأكفان، وبالسُبَح، وبالحُجُب، وبفَضلة أستار الكعبة وبرسومات تمثِّل الحرم المكي والأماكن المقدسة التي ينبغي زيارتها فيه.

= واستروا مدة ثم صار الشرط باطلًا حتى صار غالبهم من أخس الأجناس الهنود». وقال الحافظ السخاوي في «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة»: «ومن وظائفهم حفظ المسجد النبوي نهارًا، وقفل أبوابه والمبيت فيه لحراسته كما هو الأصل في ابتكارهم وتنزيل القناديل وتعليقها للتعمير والوقود ومسحها وإسراج ما يوقد منها سحرا والدوران بعد صلاة العشاء بالفوانيس لتفقد من يخشى من مبيته ويرجعون عليه بالمنع ولا يبيت فيه إلا الفراش ليطفئ القناديل وفتح الباب للمؤذن وكنس المسجد والروضة والحجرة كل جمعة وعلوة خاصة مع شيخ الخدام في كل عام وفرش بساط أمير المدينة والبخور بالمسجد أيام الجمع خادم خاص نيابة عن صاحب الوظيفة. وكذلك البخور عقب إطفاء القناديل صونًا لتلك الرائحة الكريهة». وآغا الطواشية كان يردهم من الدولة العثمانية.

(1) وقد صرح الجمهور من العلماء كراهة الخصاء. وأحكامهم مذكورة في كتب الفقه.

إيرادات مكّة والمدينة ضخمة. ترد هبات من جميع البلدان الإسلامية؛ لكن الوكلاء المكلفين بسحب إيرادات الأموال العائدة إلى مكّة والمدينة يستخدمونها لأغراض أخرى، ويبددونها، ولا يصل إلا جزء منها إلى غايته. ومع ذلك يعدُّ المبلغ الذي يتلقاه هؤلاء الوكلاء غير الأمناء، في كل عام، دخلًا كبيرًا يُخَصَّص القسم الأقل منه للعناية بمصابيح الحرم وسجاده، فيما يتقاسم باقي المبلغ خَدَمة المسجد، وهم كُثُر: الخطباء، والمؤذنون، والأئمة، والمفتي، ورؤساء الحرم، والمكلفون بالإنارة، والكنَّاسون، والسقاؤون... إلخ.

إذًا، المسجد المكي فقير، توجد بعض القناديل المذهبة فقط داخل الكعبة، ويتكفَّل السلطان العثماني ونائب الملك في مصر بالقيام بالإصلاحات الضرورية، كما يتكفلون بمعيشة المخصيين.

وينطبق هناك أكثر من أي مكان آخر القول الذي يُنسَب إلى النبي ﷺ: «**ولن يستحل البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب**[1]...».

---

(1) روى الإمام أحمد بسنده عن سعيد بن سمعان قال، سمعت أبا هريرة يخبر أبا قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «**يبايع لرجل ما بين الركن والمقام...**» وتتمة الحديث «**... ثم تأتي الحبشة فيخربونه خرابًا لا يعمر بعده أبدًا، وهم الذين يستخرجون كنزه**».

وعندما نقارن غنى الأماكن المقدسة النصرانية وأبهتها بهذه الأماكن نجد أن هذه الأخيرة، وعلى الرغم من كونها تعد الأكثر قداسة بالنسبة إلى العالم الإسلامي برمته، تعم فيها الفوضى جميع فروع الإدارات الإسلامية؛ لأنه ما من شك في أن إيمانهم راسخ كإيمان النصارى؛ لكنه إيمان دون أعمال.

الفصل الخامس عشر

- زيارة داخل الكعبة
- استغلال الحجاج
- شعائر الحج الإجبارية

كما ذكرت أعلاه، لا تفتح الكعبة إلا ثلاث مرات في العام، وقد سنحت لنا فرصة حضور إحدى هذه المناسبات التي كان موعدها في الخامس عشر من ذي القعدة الذي يوافق في هذا العام (1841م) التاسع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر. ولم يتوقف المفتي الورع عن تهنئتي بهذه الصدفة السعيدة، وقال لي: «تصوَّر أنك ستحظى بالنِعَم الكثيرة التي يسبغها الله على المؤمنين الذين يستطيعون دخول بيت النبي إبراهيم عليه السلام».

في التاسع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، وتحديدًا، عندما أخذت الشمس تُضفي لونًا ذهبيًا على قمم مآذن المسجد، قام الخصيان بتقريب المَدرَج من الكعبة، وفتح الآغا بابها. ما كاد يفتح الباب قليلًا حتى اندفع الحجاج الذين تجمعوا قبيل طلوع الفجر في باحة المسجد الكبير بسرعة إلى داخل المكان المقدس، وعلى الرغم من

الجهود التي بذلها الخصيان وضربات عصيّهم. تركتُ ورفاقي، بناء على مشورة مطوّفنا، الحشد يمرّ، وتمكنا من الدخول، لكن بمشقة. وبعد مرور ثلاث ساعات طويلة من الانتظار وصلنا إلى الكعبة، وكان علينا ترديد بعض الأدعية، وأداء بعض الركعات؛ كان الأمر يبدو شبه مستحيل لأننا كنا جميعًا متلاصقين حتى أننا كنا نجد صعوبة في التنفس.

جوف البيت هو غرفة بسيطة دعِّم سقفها بعمودين. لا ترَى النور إلا عبر الباب. كُسِي السقف والجدران بالكامل بأطلس فاخر، وزيّن بكتابات جميلة من الفضة. كُسِيَت قاعدة البناء ببلاط رخامي منقوش بكتابات رائعة، بارزة، ومذهّبة. صُنِع البلاط من رخام متعدد الألوان. تمكنت بصعوبة من أن ألمح ما أصف، لذا تعذّر عليّ قراءة أي كتابة. ويتدلى من السقف بوساطة سلاسل مذهبة عدد كبير من القناديل المتقنة الصنع من الذهب مُصمَت كما يقال.

وقيل لي: إن اثنتَي عشرة قصيدة كانت تعلق على أستار الكعبة، وهي لشعراء عرب جاهليين، وأطلِق عليها اسم **المعلقات**. وما يؤسف له أنه لم يتسنَّ لي الاطلاع عليها. والزيارة الداخلية للكعبة مدعاة مغفرة للحجاج الذين يتمكنون من القيام بها، لكنها لا تندرج ضمن شعائر الحج المفروضة.

لدى صعود المَدرَج الذي يحرسه الخصيان، على المرء أن يدفع لدى دخوله، ويدفع لدى خروجه، وكذلك عندما

يقدِّم الآغا مفتاح الباب لتقبيله، ويدفع لدى نزول المَدرَج، عليه أن يدفع، يدفع على الدوام. من يرَ كيف يُعامَل الحجاج التعساء الذين يعجزون عن إشباع جشع ذاك الكمّ الهائل من خَدَمة المسجد يرثِ لحالهم.

تُغلَق الكعبة، ظهرًا، بعد أن يقوم الخصيان بكنسها وغسلها بعناية. يبلل الكثير من الحجاج أنفسهم بخشوع بالماء الذي يسيل من الباب.

نجد لدى خروجنا من المسجد عددًا كبيرًا من المحالّ تباع فيها فضلة كسوة الكعبة التي يحرص المؤمنون على اقتنائها. كما تباع صور تمثِّل المساجد والأماكن المقدسة في مكّة والمدينة.

لا يوجد حاج، مهما كان فقيرًا، إلا ويحمل معه لأسرته أو لأصدقائه تذكارًا من حجِّته.

نسيتُ أن أذكر، في معرض حديثي عن طمع المَكِّيين الذين يشرفون على خدمة المسجد، الواقعة التي حدثني بها رفيقي عن أحد أساليب الابتزاز التي يمارسونها مع الحجاج.

قال لي المفتي «هل ترى كيف صُنِعَت القُلَل التي يحمل فيها السقاؤون[1] ماء زمزم؟ إنها مُدبَّبة من قاعدتها كي لا تبقى منتصبة؟ وهي وضعية يُمكن أن يستفيد منها الحجاج ليشربوا

(1) يطلق هذا الاسم على حاملي الماء.

عندما يضعها السقاؤون على الأرض. على هذا النحو، لا تصل أي قطرة ماء إلى حلوق الحجيج الظمأى إلا لقاء أجر يعطى إلى حامل القلّة».

من المؤكد أن معظم سكان مكّة ليس لهم موارد رزق أخرى عدا استغلال الحجاج.

كنت بحاجة إلى قدر كبير من الصبر والتظاهر للتقيد بالصلوات والشعائر التي لا تنتهي، وهي شعائر أجبرني رفاقي الذين كان ورعهم يدفعهم إلى الالتزام بأدائها. كنت سأثير سخطهم لو بدرت مني أقل ممانعة، فضلًا عن أنني كنت سأثير شكوكهم حول صدق اعتناقي الإسلام. إلا أن معاناتي من التزام إتمام فروض دينية تتعارض بشدة مع معتقداتي، كانت أقل مما كانت عليه في أثناء مدة إقامتي عند عبد القادر؛ لأنني آنذاك كنت أخدع الرجل الذي أحببته، ولم أكن أتظاهر باعتناقي الدين الإسلامي إلا إرضاءً لذاتي. خلافًا لذلك، كانت غاية المهمة التي أؤديها الآن وطنية، والدور الذي أقوم به كان مفروضًا عليّ.

ما زال المزيد من الشعائر ينتظرني، يا للأسف!! إليكم تعداد بالشروط التي تُفرَض بصرامة على المسلم الذي يرغب بنزاهة أن يستحق لقب الحاج، ويكسَب النِعم الإلهية المرتبطة بها:

أولًا: ارتداء الإحرام خلال الأيام الثلاثة المخصصة لزيارة عرفات، ووادي منى والعودة من مكّة؛

ثانيًا: حضور الخطبة التي تلقى على جبل عرفات في التاسع من ذي الحجة، وهي خطبة تمتد من العصر حتى المغرب؛

ثالثًا: حضور خطبة مشابهة في المزدلفة، في فجر العاشر من ذي الحجة؛

رابعًا: رمي إحدى وعشرين جمرة على أعمدة الأبالسة التي توجد في وادي منى، في العاشر والحادي عشر والثاني عشر من الشهر عينه؛

خامسًا: نحر الهدي في وادي منى؛

وأخيرًا سادسًا: زيارة الكعبة وعُمرة مرة أخرى، لدى العودة من وادي منى إلى مكّة، دون التوقف عن تلاوة آيات من الذكر الحكيم.

يبلغ عدد الحجاج الذين يؤدون بدقّة الفرائض التي تُلزِم بها شعيرة الحج أقل مما نتصور. إذ يكتفي الكثير منهم، إما لجهلهم أو لعدم اكتراثهم، بالطواف حول الكعبة وبحضور الخطبة في عرفات. كم من الحجاج يُقبلون إلى مكّة مدفوعين بشعور الغرور أو بقصد التجارة ليس إلا! حصلتُ على هذه المعلومات من ألسنة المؤمنين الذين مسهم الضرُّ من فتور الشعور الديني لدى إخوتهم في الدين.

الفصل السادس عشر

- **أبعث رسالة إلى شريف مكّة الأكبر في الطائف**
- **أسواق مكّة**
- **الأماكن المقدسة في أرباض مكّة**

قبل أن أتجوّل في مكّة، وأزور الأماكن المقدسة الموجودة في رحابها وفي ضواحيها، كان عليّ أن أهتم بأداء المهمة التي قادتني إلى هناك. وبناء على ذلك توجّه المفتي والمقدّم إلى المدرسة التي تسمى بالمدرسة السليمانيّة، لمعرفة أين وكيف يكون في وسعي الالتقاء بالشريف، رفيع الشأن لأسلمه رسائل أصهاره، الأمراء الأحباش، وصديقه الشيخ فرينيل. لكنهم علموا أن الشريف الأكبر موجود حاليًا في الطائف. ولما كان القيام بأي مسعى دون استشارته مقدّمًا ينطوي على مجازفة، ولما كان ينبغي، من ناحية أخرى، أن نجد حلًا لرؤيته قبل بدء شعائر الحج الطويلة التي كان يفترض أن تبدأ في الثامن والتاسع من ذي الحجة (الموافق للحادي والعشرين والثاني والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1842م)، اتفقنا على أن أكتب إلى الشريف الأكبر سيدي محمد بن عون، لأعلمه أنني أحمل إليه رسائل مهمة من أصهاره ومن صديقه السيد فرينيل، وأنني أنتظر أوامره. تعهّد

أحد حراسه الزنوج الذي أعطيته بقشيشًا كبيرًا بتسليم رسالتي إلى سيّده، ووعدني بأن يأتيني بردّه. وبانتظار عودته، كرستُ وقتي للتجوال في المدينة، وزيارة الأماكن التي يجلّها المسلمون. كان مرشدي أحد الخصيان، وقد ساعدني على إتمام شعائر الكعبة والعُمرة، في اليوم الأول، وكنتُ قد أجزيته بسخاء حتى إنه عرض أن يكون مرشدي في أماكن ليست مقدسة على الإطلاق ليثبت لي حماسته وتفانيه. كنت أهتم كثيرًا بالحفاظ على رزانتي وصرامة أخلاقي بدلًا من أن أدع الفضول يتمكّن مني، وهو فضول ما كنت لأتمكن من مقاومته في ظرف مغاير. إليكم المعلومات التي استطعت الحصول عليها حول المظهر العام لمكّة: يطلق على مكّة أسماء كثيرة؛ أشهرها ثلاثة:

أم القرى؛

المشرّفة؛

بلد الإيمان.

وهي تقع في وادٍ ضيق؛ مُجدِب ورمليّ. تشغل المدينة وضواحيها مساحةً شبه بيضويّة بدا لي أنها تبلغ ميلًا ونصف ميل طولًا، ووسطيًا نصف ميل عرضًا.

لا يزيد ارتفاع التلال التي تحيط بمكّة عن 150 مترًا؛ وهي قاحلة تخلو من الأشجار.

شيِّدت المنازل من حجر وهي عالية. تصل إلى ثلاث

طبقات، وخلافًا للعادات الإسلامية، تطِلّ جميع النوافذ على الشارع. الجدران غير مطلية بالكلس. الشوارع عريضة نوعًا ما. شيدت المدينة بالطبع على نحوٍ يؤمِّن الراحة والرفاهية (النسبية!) للحجاج، وهي مورد رزق السكان الوحيد.

لم تقع عيني لا على ساحات ولا على أشجار. وتخلو المدينة من أي أوابد عدا منازل الشريف الأكبر، والمسجد الكبير وبعض المدارس.

تشغل القسم الأكبر من النوافذ مشربيَّات من خشب محفور ومطليّ، وشُدَّت بسفائف رقيقة للغاية تسمح بمرور الهواء، لكنها تمنع دخول الذباب والناموس الذي يكثر فيها.

تهدَّم الكثير من المنازل منذ أن تناقص عدد الحجاج. شوارع مكّة غير مرصوفة، ما يجعلها مزعجة بغبارها في الطقس الجاف، وبوحلها في الطقس الماطر. لا نلمح أي أثر لتلك العمارة العربية الأنيقة التي تثير إعجابنا في القاهرة وإسبانيا.

سبق أن ذكرت أن ماء زمزم هو الماء العذب الوحيد الذي يصل إلى البئر الذي يحمل هذا الاسم عبر قناة تقع تحت الأرض، وما عدا ذلك فإن مياه الآبار الأخرى في مكّة أجاج. يوجد فيها بعض الصهاريج تُجمَع فيها مياه الأمطار. تعدّ مياه النبع أو الينابيع التي تبعد حوالى 30 ميلًا عن مكّة هي الأفضل من نوعها؛ وهي تصل إليها عبر

قناة اصطناعية[1]، وتعد هذه القناة عملًا رائعًا بحق، لكنها تداعت لنقصٍ في الإصلاحات. يملك الأشراف النوافير التي تغذّيها هذه القناة الاصطناعية ويبيعون الحجاج مياهها، هؤلاء المساكين الذين يُستغلون أكثر مما يستغل المستحمّون في مراكز المياه المعدنية الأوروبية.

استرعى انتباهي على وجه الخصوص ثلاثة أحياء في مكّة:

1 ـ حي الصفا، حيث يقيم رئيس الخصيان وأتباعه الخمسون الذين تزوجوا جميعًا من زنجيات(؟)[2]، عدا الفتية منهم. تدل بيوتهم على مدى عنايتهم بها. يقطن في هذا الحي الحجاج المتميزون. يملك الشريف الأكبر فيه بالقرب من الحرم قصرين في حالة سيئة نوعًا ما.

يبدأ مما يسمى قصرًا المسعى (الذي يسعى فيه الحجاج لدى أدائهم شعيرة السعي). يتخذ المسعى شكل سوق طويلة تقوم على جانبيها محال تعج بالحركة. تباع بالمزاد بضائع من جميع الأصناف في هذا الشارع، بدءًا من الأسلحة ونفائس الأقمشة وصولًا إلى الأشياء الكمالية.

---

(1) هي المعروفة بعين زبيدة.

(2) إشارة الاستفهام هذه من وضع ليون روش الذي يشكك بالمعلومة. فإذا كان الخدم كلهم من الخصيان فكيف يكونون متزوجين. أبو القاسم سعد الله، ، م. س، ص333. وقال مترجما رحلة بوركهارت، **الهلابي والشيخ**، ص318: انظر محمد محزون: **المدينة المنورة في رحلة العياشي**، ص235 حيث يقول العياشي عن الأغوات: «ولهم ديار وخدم وأتباع وضياع وخيل وسعة ودنيا... بل لبعضهم أزواج وسرار اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع».

نجد هناك محالًا تباع فيها نسخ جميلة من القرآن الكريم، والساعات الإنجليزية، ومربَّيات مصنوعة في استانبول؛ وبجانبها مطاعم تقدِّم إلى الحجاج لحم الضأن المشوي، وصنوفًا من القشدة، فضلًا عن وجود عدد كبير من المقاهي. من كان يتصور أن بعضها يقوم ببيع مشروبات مُسكِرة، من بينها «البوظة»(*)، نوع من أنواع المشروبات الكحولية.

2 ـ الحي الصغير الذي يسمى سويقة، حيث يقيم هنود أغنياء في جزء منه. وتبدو الشوارع التي توجد محالهم على جانبيها، نظيفة ومرشوشة بالماء. يعبق الجو برائحة العطور، ويا لها من أقمشة نفيسة! ما أجملها تلك السُبُحات المصنوعة من الصَبِر، ومن الصندل، و من حبات اليسر! كما تباع أختام جميلة منقوشة على عقيق أحمر. عُرِف عن الهنود بأنهم غير متمسكين كثيرًا بالإسلام، ولكنهم لما كانوا أغنياء، فإن الناس يغضون البصر عن عدم استقامة عقيدتهم. ويُباع الرقيق، من رجال ونساء، في هذا السوق.

رأيت في هذا السوق، المقبَّب والمضاء بفتحات كبيرة شُقَّت في القبة، حبشيات آية في الجمال، معروضات، يتحملن باستكانة كئيبة نظرات وملامسات المشترين الوقحين. تمنيت لو كنت غنيًا حتى أبتاع تلك المخلوقات

(*) من أنواع المشروبات المثلجة المسكرة.

الجميلة والبائسة وأعتقها. تباع أجملهن بحوالى 800 إلى 1000 فرنك. أما حارتا الشبيكة وباب عمر فتضمان بيوتًا جميلة تؤجَّر للحجاج الأغنياء. ويوجد فيهما محال لبيع المنسوجات الحريرية الدمشقية والحلبية.

نجد في مكّة خلال الأشهر التي تسبق وتلي شهر الحج حجاجًا من أنحاء العالم الإسلامي كله. وقد سبق أن ذكرت أن موعد الحج يقع في كل أشهر السنة في دورة من ثلاثة وثلاثين عامًا.

عندما نلقي نظرة فاحصة على محال شارع المسعى الكبير، نرى المغربي الذي يبيع جلود الماعز الجميلة الصفراء والحمراء (السِختيان الغالي الثمن). والتونسي الذي جلب معه الطرابيش[1]، والقلنسوات الحمراء. والتركي الأوروبي الذي يبيع أقمشة مطرزة، وعنبرًا، وفاكهة مجففة، وإمامة (مباسم من عنبر)[2]؛ والتركي الأناضولي، بسطًا حريرية، وشالات من صوف الأنغورا؛ فارسية وكشميرية، ومناديل حريرية؛ والأفغانيون، شالات مطرزة تطريزًا رائعًا؛ والهنود، أسلحة رائعة، وأقمشة

(1) سماه أبو القاسم سعد الله، م. س، ص333: الشواشي (جمع شاشية). وهو غطاء رأس معروف في تونس، وهو يشبه الطربوش القصير. وصنعته من الصوف.

(2) قطع من العنبر توضع في رأس خرطوم النرجيلة لتقي المستخدم من عدوى الأمراض لدى المستخدمين الآخرين.

ومنتجات مختلفة؛ ويبيع عرب اليمن، جلديات وخراطيم النرجيلة؛ والسوداني، والقادمين من تمبكتو، سلالًا مجدولة (من القصب والقماش)، وقطنيات... إلخ.

يكثر المتسولون، الهنود على وجه الخصوص، وهم إحدى الآفات المرافقة للحج، هم الدراويش، القذرون والمتعجرفون. يجد الحجاج الميسورون أنفسهم مجبرين على إعطائهم صدقة ليتجنبوا المواقف المشينة التي يقدمون عليها لمن يعارض طلباتهم الوقحة. يأتون إلى الحج من تمبكتو وسمرقند ومن جورجيا وبورينو.

ولعل الحجاج السودانيين هم أكثر الحجاج جدارة بالتقدير، بل أكثرهم نفعًا. فعلى الرغم من فقرهم المدقع، يأبى هؤلاء الأناس الشرفاء أن يتسولوا، ولقاء أجر زهيد يسدون العديد من الخدمات الصغيرة في حين يأنف الحجاج الآخرون الأكثر بؤسًا من تأديتها.

توجد مواخير في حارتين في مكّة. تقيم في بعضها بدويات من القبائل المجاورة. ناهيك من أن الحج ليس بممنوع على النساء غير المتزوجات، ونجد كثيرًا منهن يرافقن القوافل الكبرى القادمة من القاهرة وسورية، ويتباهَيْن ببذخٍ عظيم.

لم أقتنع كثيرًا بإيمان الحجاج. أعتقد أن مكّة تستهوي معظمهم لدوافع دنيوية محضة: كالمضاربات التجارية،

والمباهاة والفضول. إضافة إلى ذلك، لا يحظى الحجاج جميعًا في العالم الإسلامي بالتقدير الذي يُفترَض أن يرتبط بلقب الحاج. إليكم استنادًا إلى ذاك الرأي مثَلٌ كثيرًا ما سمعته يتردد على لسان مسلمين من بلدان مختلفة:

سؤال: من أكثر احتيالًا من حاج؟

جواب: الحاج الذي أدى حجتين[1].

توصلت إلى قناعة أنه لا بدَّ من وجود الكثير من الاستثناءات. زرت مع مرشدي الخصي الأماكن المقدسة الرئيسية الواقعة في مكّة والمدينة، وهي على التوالي:

مولد النبي، مسقط رأس النبي محمد ﷺ؛ وهو مسجد محفور في الأرض، ننزل إليه بسلم.

مولد ستنا فاطمة، مسقط رأس فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

مولد علي، مسقط رأس علي رضي الله عنه، ابن عم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

مولد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، مسقط رأس حمي النبي ﷺ.

---

(1) حاول المؤلف أن يكتب المثل بالعربية فجاء كالتالي:
- ما أحرامي من حاج؟
- حجين.

قبر ستنا خديجة رضي الله عنها، قبر زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قبر آمنة، والدة الرسول صلى الله عليه وسلم. ونلحظ في جميع هذه المزارات آثار الدمار التي خلّفها السعوديون.

أما خارج المدينة فزرنا جبل أبو قبيس الذي يقع شرقي المدينة، حيث كان يتعبَّد الخليفة عمر وسط المشركين: وهو حسب ما جاء في السُنَّة أول جبل خلقه الله؛

مقام شق القمر، المكان الذي أنزل فيه النبي محمد ﷺ القمر من السماء؛ جبل النور، حيث كان النبي ﷺ ينفرد بنفسه ليتعبد، وهناك أتاه الوحي من طريق الملاك جبريل عليه السلام.

جبل ثور، وبه الغار الذي اختبأ فيه النبي ﷺ حين أُخرِج من مكّة في طريق هجرته المدينة.

قمنا بزيارة بعض المقابر التي تركت مهملة إلى حد ما. وهناك حامية تركية تحتل قلعة حصينة، تشرف على المدينة من الشرق. كما شاهدنا دار استجمام يمتلكها الشريف الأكبر، فضلًا عن حدائق مخضرة نسبيًا، وصهاريج جميلة جدًا لحفظ الماء، لكنها في حالة سيئة. دلنا مرشدنا على تجمع لأكواخ وخِيَم تقيم فيها عاهرات. ولم نرَ في ضواحي مكّة سوى وادٍ صغير وحيد ذي خصوبة نسبية، يسمى وادي العبيدية.

الفصل السابع عشر

- **الرحلة من مكّة إلى الطائف**
- **في رحاب الشريف الأكبر سيدي محمد بن عون**

وأخيرًا، في السادس من كانون الثاني/ يناير 1842م، جاءني زنجي الشريف الأكبر، بعد أن بدأ غيابه الطويل يقلقني، حاملًا إليّ ردّ سيده. قال لي: «يتشرف سيدنا الشريف باستقبالك ويرسل إليك، لهذا الغرض، جواز مرور، إضافة إلى الجمال والخدم الضروريين، من أجل نقلك ورفاقك إلى الطائف».

ينصّ هذا الجواز على ما يلي: «حامل هذه الرسالة الخطيّة، الممهورة بختمنا، هو السيد عمر بن عبد الله الجزائري[1]؛ قد قدم لزيارتنا؛ فليحترم».

جرت استعدادات مغادرتنا بسرعة؛ على الرغم من رغبة عزيزي المفتي في مرافقتي، إلا أن صحته وصحة زوجته

(1) أعطاني السيد فرينيل هذا الاسم في كتاب التوصية الذي وجهه إلى الشريف الأكبر. ذكر روش للأمير عبد القادر أن أهل مدينة الجزائر كانوا يسمونه عمر. وقال في 1/ 55 إن الأمير وافقه على ذلك لأن الخليفة عمر اعتنق الإسلام أيضًا، وحثه على الاقتداء به. أما اسم عبد الله فلم يشر حسب علمنا إلى أصل إضافته لاسمه.

ألزمتاه البقاء في مكّة. أسفت لأنني سأفارق هذين الزوجين الرائعين اللذين عاملاني كما لو كنت ابنهما بحق.

في الثامن من كانون الثاني/ يناير، انطلقت ومقدم التيجاني، نمتطي مهارى الشريف الأكبر الرائعة. تمكنا بسهولة من اجتياز التسعين ميلًا التي تفصل مكّة عن الطائف في غضون يومين، وذلك بفضل السير الوادع والسريع لتلك الحيوانات الأصيلة.

يمر الطريق الذي يوصل إلى الطائف عبر حي المعابدة، في طرف مكّة الشمالي، ثم شرقًا ويجتاز على التوالي وديان منى وعرفات، حيث جرت شعائر الحج الأخيرة. ثم يحاذي القناة الاصطناعية التي توصل المياه إلى مكّة. تبدو المنطقة التي اجتزناها مقفرة ومجدبة عمومًا، وصولًا إلى الطرف الشرقي لسهل عرفات، حيث توقفنا بعض الوقت في محطة تسمى مقهى عرفات، يظللها عدد كبير من أشجار الأكاسيا. وهناك تبدأ القناة الاصطناعية.

عندما وصلنا إلى هذا المكان، استبدلنا بمهارينا حميرًا رائعة؛ وأما الجمال التي يصعب عليها اجتياز ممرات الجبل الوعر فقد سلكت طريقًا أطول يحيط بالكتلة الجبلية التي ننوي عبورها. أما نحن فقد توغلنا في شعاب الجبل على ظهور حميرنا الرائعة؛ سلكنا طريقًا وعرًا وحَصِبًا لا شيء فيه يثير الاهتمام، وقبل ساعتين من غروب الشمس، وصلنا إلى

القمة حيث بنيت قرية صغيرة محاطة بحدائق تسمى رأس الكرا. بدت عذوبة هذا الموقع متعارضة مع قحط المناطق المجاورة. ولن أنسى أبدًا الانطباع الذي خلّفه لديَّ منظر تلك الواحة المخضوضرة الواقعة وسط الشفعات الحادة لسلسلة جبال الكرا الصوانية، التي تضيئها أشعة شمس غاربة سَنية. استقبلنا أهل القرية بحفاوة، وهم يتحدرون من قبيلة هُذيل القديمة المشهورة في تاريخ المآثر الإسلامية. شيد المنزل الذي أقمنا فيه على نحو غير متقن، لكنه بدا نظيفًا تمامًا. بتنا فيه في مأمن من درجات الحرارة المنخفضة التي تسود في هذا الفصل، على هذا الارتفاع، وما كنت أملُّ من الاستماع إلى مضيفينا وهم يتكلمون في منتهى العذوبة والشاعريّة بلهجة الحجاز الجميلة.

صادف اليوم التالي، الأول من كانون الثاني/يناير عام 1842م اليوم الذي تجتمع فيه الأسر والأصدقاء في بلادي لتبادل الهدايا والتمنيات بالسعادة، لا شك في أن والدي ووالدتي بالتبني كانا يبكيان ابنهما الذي لن ينتظرا رؤيته بعد الآن، فيما كنتُ أنا أتابع، دون أن أجد شخصًا واحدًا أستطيع أن أبوح له بمكنونات قلبي، وسط أقوام متعصبة، القيام بمهمة محفوفة بالمخاطر، كنت أستشفّ فيها النهاية الحتميّة. لم يكن حالي في هذا اليوم لا أسوأ ولا أفضل من الأيام السابقة، لكن هذا التاريخ أيقظ في نفسي الكثير من الذكريات، وشعرت بنفسي مثقلًا بألمي، حتى إنني، لو

أعطيت فرصة، في هذه اللحظة، لتمكنت من التملص من احتمالات هذه المهمة التي تتهددني. . . فات أوان الرجوع عن قراراتي. يا لها من ليلة! أي رجوع قاسٍ إلى الماضي! آه! حريٌ بعذابات نفسية كهذه أن تكفِّر عن كثير من الذنوب!

في اليوم التالي، نزلنا من راس الكرا عبر طريق وعرة محفوفة بالأخطار، أوصلتنا إلى وادٍ جميل، وخصب، يسمى وادي محرم، ترويه الآبار المنتشرة فيه. ونظام الري هو نفسه النظام الذي رأيته منذ حين متبعًا في طرابلس الغرب، ويسمى غورغاز[1]: يُحفَر سطح مائل بالقرب من البئر؛ تقوم بقرة، مربوطة إلى حبل متحرِّك على بكرة بسحب قِربَة معلَّقة على الحبل عند نزولها عن هذا السطح المائل؛ وعندما تصل القربة إلى خرزة البئر تنسكب في حوض صغير، وعندما تصعد البقرة، تنزل القربة بثقلها الذاتي إلى عمق البئر، لتمتلئ بالماء، وهكذا دواليك.

تبدأ زراعة البن، كما قيل لنا، بدءًا من هذا الوادي باتجاه الجنوب. كما عبرنا سلسلة جبال صغيرة، شاهدنا الطائف من قمتها.

والطائف: مدينة صغيرة محصّنة تحصينًا مقبولًا، يُشرِف عليها ما يشبه القلعة، وتقع وسط سهل مُجدِب ورمليّ، محاطٍ بجبال وعرة، شديدة الانحدار.

---

(1) وبالعربية يدعي السقي بالسواني.

وفي الجنوب الغربي من المدينة تمتد رياض جميلة، تنتثر فيها دور الاستجمام على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة.

كانت الشمس قد غربت عندما دخلنا المدينة عبر باب تعلوه أبراج ذات فتحات. بدت لي الشوارع أعرض من شوارع المدن العربية الأخرى. حللنا في إحدى المدارس الملحقة بالمسجد المسمى، مسجد الهنود، حيث أعدَّت شقق لنا. وأكرم وفادتنا أشراف تابعون لهذا المسجد، وأشرف على خدمتنا الزنوج الذين رافقونا من مكّة إلى الطائف. لم يوجّه لنا أي سؤال. قدمت إلينا وجبة لذيذة، تبعها مجيء إمام المسجد ليُصلي بنا العشاء، وليلقي علينا خطبة طويلة.

بقي مضيفونا ملتزمين الصمت في اليوم التالي. فرَضَت علينا الرزانة الإسلامية التحفظ عينه. كنت أرغب في زيارة المدينة، لكنهم أفهموني بأنني لا أستطيع القيام بأي نزهة قبل تلقي الأوامر من الشخصية رفيعة الشأن التي تستضيفني.

بدا لي النهار طويلًا للغاية. وأخيرًا، وبعد انتهائنا للتو من صلاة المغرب، دخل الغرفة المخصصةّ لي مسلم بهي الطلعة، وبعد أن تبادلنا التحيات المعهودة، سألني عما إذا كنت السيد عمر بنْ عبد الله الجزائري. وعندما أجبت بالإيجاب عانقني على الطريقة الإسلامية (قبلة على الكتف الأيمن). وبعد أن جلس القرفصاء أمامي، أخبرني أن ابن

عمه، وسيّده، سيدي محمد بن عون، يرحب بي، وينتظرني في دار الاستجمام الخاصة به في وادي سلامة.

امتطينا جيادًا جميلة، مُجلّلة بسخاء، يقودها نوبيّون، وفي غضون عشرين دقيقة وصلنا إلى مسكن الشريف الأكبر. اقتيد رفيقي، مقدّم التيجاني، إلى جناح ملحق بالمسكن الرئيسي، وأدخلت وحدي قاعةً في الطابق الأرضي غنية بأثاثها من الأقمشة الحريرية الموشّاة بالذهب.

وبعد عدة لحظات، فتح زنجيان باب مجلل بسِجاف، ورأيت عربيًا يدخل، رجلًا من أجمل الرجال الذين التقيت بهم من سلالة إسماعيل. يضفي لون بشرته السمراء الداكنة مزيدًا من البريق على نظرة عينيه الجميلتين، وعلى بياض أسنانه. أما لحيته، الناعمة والخفيفة، اصطبغت باللون الأبيض. أطرافه مميزة على نحو لافت؛ كانت ثيابه فائقة النظافة وبسيطة بقدر ما هي أنيقة. إنه سيدي محمد بن عون، شريف مكّة الأكبر، سليل فرع الأشراف المعادين لأسرة غالب الذي هزمه محمد علي. ترقّى إلى تلك المناصب الكبيرة بدعم من نائب الملك المصري، فكان مخلصًا لسياسته؛ لذا، قلما انسجم مع هيمنة العثمانيين.

استقبلني استقبالًا لطيفًا، لا بل وديًّا.

أخبرني أنه عَلِم بقدومي إلى مكّة من طريق رسائل أصهاره وصديقه الرائع والعالِم، الشيخ فرينيل، وأنه كان

ينتظرني بصبر نافد. ولاحظت من حديثه أنه يعرف عن ماضيَّ معلومات محددة.

قدِّمت إلينا وجبة لذيذة، شاركنا فيها عدة أشخاص قدَّمهم إلي سيدي محمد على أنهم أولاد أعمامه، وقدمني إليهم، على أنني جزائري أوصى به الشيخ فرينيل المشهور في الحجاز كله بسعة علمه، والمحبوب لدماثة أخلاقه واندفاعه لخدمة الآخرين.

وجَّه الشريف الأكبر إليّ أسئلة عن وضع الفرنسيين في الجزائر، وعن الأمير عبد القادر والحالة العامة للسياسة في أوروبا؛ لكنني أدركت بسهولة، من خلال الطريقة التي كان يوجِّه فيها هذه الأسئلة إليّ، أن عليّ أن أتوخى الحذر الشديد في إجاباتي.

أخبرني أنني بحاجة إلى قسطٍ من الراحة، وأخذني إلى الجناح الذي كان عليّ أن أقيم فيه، وكان أصدقائي قد حلوا فيه من قبل.

في اليوم التالي، قدّمتُ إلى الشريف الأكبر مقدّم التيجاني، المكلّف بأن يعرض عليه فتوى القيروان، المدعّمة بموافقة من علماء القاهرة، ويطلب إليه مهر هذه الفتوى المهمة بختمه. وجّه سيدي محمد عدّة أسئلة إلى المقدّم، ووعده بأن يقرأ الفتوى بإمعان؛ لكنه أضاف: «لا يحقُّ لي على الإطلاق أن أنفرد بوضع ختمي في أسفل هذه

الفتوى. لا أملكُ أي صفة شرعيّة، ينبغي أن ينحصر دوري، في مسألةٍ كهذه، على عقد مجلس العلماء، وعلى عرض قرارات مجلسَيّ القيروان والقاهرة أمامه. وهذا ما سأفعله».

الفصل الثامن عشر

- مقابلة خاصة مع الشريف الأكبر
- مساررته

في اليوم نفسه، بعد صلاة المغرب، جاء أحد أولاد عمٍّ الشريف الأكبر يعلمني أن ابن عون يدعوني إلى مشاركته في تناول عشائه. أدخِلتُ إلى غرَفِهِ الخاصة في الطابق الأول، وبعد تناول الوجبة التي كانت فاخرة حقًا، واقتصرت المشاركة فيها على ابن عمه، قام بإشارة، فرُفِعَت المائدة، وقدّمت القهوة، وبقيت وحدي أمام مضيفي.

قال لي: «لم نتناول في مقابلتنا الأولى سوى موضوعات عامة؛ يمكننا أن نتصارح الآن، بلا أي خشية أو تردد. لعل الشيخ فرينيل، على الرغم من كونه نصرانيًا، هو أكثر صديق يمكن أن يحظى بثقتي؛ لقد أوصاني بك كما لو كان يوصيني بنفسه، وأشادَ أصهاري بخصالك الحميدة، يمكنك من الآن أن تعتمد على إخلاصي وصدقي. تكلَّم بصراحة إذًا وفسِّر لي الهدف من زيارتك.»

قلت له: «لم آتِ إلى مكّة لأداء فريضة زيارة بيت الله التي فُرضت على جميع المسلمين؛ بل كلِّفتُ، إضافةً إلى

ذلك، القيام بمهمتَيْن، كما أخبرتُكَ بإيجاز في الجلسة الأولى التي استقبلتني فيها وهما: الأولى، الحصول على إقرار على الفتوى الصادرة عن مجلس القيروان التي صدَّقَ عليها مجلس القاهرة؛ والثانية، هي السعي لوضع حدّ للمعاملة السيئة التي يقع ضحيتها المسلمون الجزائريون الذين يقصدون مكّة للحج. عهَدَ إليّ بهاتين المهمتَيْن أصدقائي، مرابطو الجزائر الرئيسيون؛ وأضفتُ بنبرة أكثر ودًا: أنت ترى أن صراحتي تامة، وكلفني بها الجنرال بوجو، الحاكم العام، الذي كلَّفه ملك فرنسا بحكم الشعوب المسلمة، التي كانت حتى وقت قريب تحت سيطرة الأتراك الظالمة والغاشمة الذين هزمتهم الجيوش الفرنسية وطردتهم بإذنه تعالى. لقد اطَّلعْتَ سيادتك على فحوى الفتوى التي ستساهم إذا ما حصلت على الإقرار الأخير من علماء المشرق والمغرب المجتمعين في مكّة، في إعادة السِّلم والطمأنينة إلى البلدان المُدمرة اليوم جراء حربٍ لا طائل من ورائها؛ ولا بدَّ أن أضيف، في هذا الصدد، أن إقرار علماء الأزهر فتوى القيروان، جاء نتيجة عملهم بالنصائح السديدة التي وجهها إليهم نائب الملك في مصر الذي تشرَّفتُ بالتحدث إليه عن هدف مهمتي. وليس بخافٍ، أيها الشريف النبيل أن أواصر صداقة متينة تربطك بنائب الملك، وأنك أحد أكثر المدافعين المتحمسين للسياسة الحكيمة التي ينتهجها محمد علي. توجَّهتُ إليك إذًا وأنا على يقين بأنك ستعمل على

تسهيل مهمتي؛ لأن الأمر يتعلّق بادئ ذي بدء بعمل إنساني للغاية؛ وثانيًا لأنك بذلك ستعمل على إنجاح مشاريع صديقك العظيم الذي يحرص، لمصلحة دين الإسلام طبعًا، على الحفاظ على أفضل العلاقات مع فرنسا[1]، حليفتهُ صاحبة النفوذ الأكبر والأكثر إخلاصًا. لا شك في أن المشاعر التي يمليها الواجب، والتقيد بالشريعة الإسلامية هي وحدها التي تُملي عليكَ أفعالك، لكن على كلٍّ امرئ، مهما علا شأنه، ألا يغترّ بالرضا الذي منحه الله للأمراء الذين اصطفاهم ليحكموا عباده، على اختلاف دياناتهم» .

- «حقًا إنك تلميذ نجيب لفرينيل». قالها الشريف الأكبر مبتسمًا بلطف.

لقد فهم. لقد أوصاني صديقي الرائع فرينيل بأن أثني على ميول الشريف الأكبر المتعلقة بأداء دور سياسي لجذب انتباه الدبلوماسية الأوروبية إلى شخصه .

لم يكن هناك من داعٍ إلى الإلحاح إلحاحًا أكبر على مسألة شائكة إلى هذا الحد، ما دمت قد تيقَّنتُ أن تلميحاتي قد أصبحت مفهومة. تحدثت حينئذٍ إلى مضيفي

(1) قال ليون روش في رحلته، مج2، ص64: كانت فرنسا تساعد محمد علي في مصر والمشرق لتمنع الدولة العثمانية من استرجاع الجزائر. انظر: أبو القاسم سعد الله، م. س، ص339.

عن الوضع المؤسف الذي يعاني منه المسلمون الجزائريون في مرافئ البحر الأحمر وسفنه.

وعدني الشريف الأكبر، وقد نحَّى عنه أي مسؤولية في ما يتعلق بالمعاملة السيئة التي تعرض لها حجاجنا الجزائريون، وعدني أن يستخدم نفوذه، سواء لدى السلطات التركية والمصرية، أو لدى ربابنة السفن الذين يبحرون في البحر الأحمر ليضع حدًّا للحالة التي تستنكرها الشرائع الإنسانية والشريعة الدينية على حد سواء.

تطرَّقنا بعد ذلك إلى موضوعات أخرى، وأصبحنا في ساعة متأخرة من الليل وهو يرغب في سماع المزيد من الأحداث التي كنت شاهدًا عليها في الجزائر، وخصوصًا خلال مدة إقامتي بالقرب من عبد القادر.

قال لي الشريف الأكبر: «حان وقت الفراق سريعًا إذ لم تُسَرّ أذناي قط بسماع قصص ممتعة كتلك التي سمعتها في حديثك الذي لا أشكّ في صدقه؛ سأفكر في كل ما قلته لي بخصوص المهمات التي ينبغي عليك القيام بها، وسأعمل كل ما في وسعي لتكون راضيًا كل الرضا. ستبقى في منزلي طوال المدة اللازمة للوصول إلى هذا الهدف، وسنسهر معًا، كل مساء، ونتبادل الآراء. فرينيل كان يصدقني القول كما هو شأنه دائمًا».

وعندما استأذنت منه بالانصراف، جذبني سيدي محمد بن عون إليه وقبلني بحرارة تتعارض مع مظهره الرزين المتحفظ.

خلال أربع أمسيات أخرى، أتيحت لي فرصة تبادل أحاديث حميميّة مع هذا الرجل المتفوق. كان الشريف الأكبر يعرف كيف ينحّي المشاعر التعصبيّة والأنانيّة التي تضع عقبات لا يمكن تذليلها بين المسلمين والشعوب الأخرى، دون المساس بالدين المحمّدي.

أورِدُ في الصفحات التالية جملة الآراء المختلفة التي عبّرَ عنها على التوالي سيدي محمد بن عون في مجرى الأحاديث التي تبادلناها خلال الأمسيات الممتعة التي أمضيتها وجهًا لوجه معه، في منزله في الطائف.

قال لي في ما يتعلق بالحج إلى مكّة: «أين هي تلك الأيام الخوالي التي كان إيمان المسلمين فيها يجتذب مئات الآلاف من المؤمنين إلى المدن المقدسة، قادمين إليها من جميع أنحاء العالم؟ لقد ألَمَّت اللامبالاة الدينية بالمسلمين تدريجيًا، وتضاءل عدد الحجاج بسبب خور إيمانهم. كانت تؤم مكّة في ما مضى ست قوافل كبيرة، تأتي بانتظام من كل حدب وصوب. تسنّى لأجدادنا مشاهدة أمراء حاكمين يقصدون مكّة، تتبعهم الجماهير بأسرها؛ خيّم المستعصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين، في عرفات ومعه مئة وثلاثون ألف جمل. كان الحج سابقًا يغدو حدثًا أمر به الله بنفسه، وكان المسلمون يكلِّفون أنفسهم تحمّل مشقات الرحلات الطويلة برًا وشظفها بوصفها نوعًا من العمل الصالح.

كانوا جميعًا يلتزمون العفة طيلة مدة الحج، لا تشغلهم إلا الصلاة وقراءة أحاديث النبي. أما اليوم فلا يكاد عدد الحجاج الذين يزورون بيت الله الحرام يتجاوز أربعين أو خمسين ألف حاج. ولا يزيد عدد القوافل التي تصل إلى مكّة عن ثلاثة: تلك القادمة من الشام، وتلك القادمة من مصر، وتلك القادمة من اليمن. فضلًا عن أن عدد الحجاج ضئيل، وخصوصًا في القافلة الأخيرة. يسلك معظم الحجاج الطريق البحري؛ وينصرفون جميعًا تقريبًا إلى التجارة، وتحل في قلوبهم روح المضاربة محلّ التقوى. وكيف تراه يكون مسلكهم، يا للأسف! خلال شهر الحج العظيم! وقى الله عينيك من منظر أفعالهم الشائنة!

«إن باديشاهات استانبول، أمراء المؤمنين، وظلّ الله على الأرض، رفعوا راية الإسلام عاليًا عندما كانوا يتخذون القرآن الكريم قاعدةً لسلوكهم، وعندما كانوا ملتزمين بالجهاد في سبيل الله؛ لكنهم لمّا فقدوا الشعور الديني، وسمحوا بوصول مارقين من جميع الشعوب إلى المناصب العليا، وبعبارة أخرى، عندما خضعوا لوصاية النصارى، تسبّبوا في تقويض أساسات الإمبراطورية العثمانية، ولعلها ستنهار عما قريب؛ لأن القدوة السيئة التي يمثِّلها الأمراء ستُفسِد رعاياهم. كلّ شعب يفقد إيمانه يسير نحو الانحطاط.

«لا يخلُو العالم الإسلامي من وجود محافظين على الشريعة أُمَناء، ومؤمنين صادقين، لكن الناس يتشبثون بخيرات الأرض أكثر من نِعَم السماء. لا تنفكّ شفاههم تردد اسم الله، ولكن، في أغلب الأحيان، يسكن الشيطان قلوبهم. ونحن الأشراف، ذرية النبي ﷺ، الذين منحنا الله تعالى المراتب العليا في هذا العالم، ألم نساهم في زوال الإيمان؟ ألم نكن مثالًا للبذخ والجشع مما لفت إلينا أنظار السعوديين؟ وبدلًا من أن نتقيد بالتعاليم الحكيمة التي نادى بها هؤلاء الإصلاحيون، ونبرم معهم تحالفًا كان بإمكانه أن يحمي أراضي المدن المقدسة من غزواتهم المشؤومة، قمنا بمحاربتهم، ولكي نثأر من الهزائم التي أنزلوها بنا طلبنا تدخل الأتراك، المسلمين، أعداء العرب اللدودين! ما كان أشد حمقنا! بدلًا من أن نستنجد بحلفاء لمساعدتنا وضعنا أنفسنا بأنفسنا تحت نير طغاة قساة. ناهيك عن أننا أُجبِرنا نحن الأشراف، حكام المدن المقدسة بلا منازع إلى عهد قريب، نحن، ذرية الرسول ﷺ المباشرين، أُجبِرنا أن نطأطئ رؤوسنا لأسوأ الباشاوات، أغلبهم من العبيد النصارى القدماء الذين وصلوا إلى السلطة بأكثر الوسائل خزيًا.

«آه! لو أن الله تعالى يشاء أن يعيد إلى الإسلام مجده وسلطته لكان ينبغي أولًا أن يُلهِم المسلمين إيمان أجدادنا العظماء وتقواهم، وأن يلهمهم العمل على تعزيز هذا الإيمان ومحاربة البذخ والجشع، ذلك كان الهدف الذي جاهر به

السعوديون، لكن إيمانهم لمّا يكن كافيًا؛ إن الله تعالى الذي كشف ما في قلوبهم من نزعات طموحة ومطامع لم يبارك عملهم؛ ولكن المسلمين من ذوي الهمم الفاترة، ومن محبي الرفاهية سهلوا مهمة هؤلاء الإصلاحيين المتمسكين.

«لقد هَبَّ رجلان لإحياء المشاعر الدينية عند المسلمين هما: شامل[1] في الشرق، وعبد القادر في الغرب. أيّ مساعدة حصلا عليها من الأمراء أصحاب النفوذ الأكبر في الإسلام؟ ألم تسأم الشعوب التي حملت إلى السلطة هذين البطلين، بطليْ الوطن والإيمان، سريعًا من النضال، أوليست مستعدّة اليوم للتخلي عنهما؟

«توخيتُ الأمل للحظة بالمسلمين، مع ارتقاء محمد علي عرش مصر. قلتُ لنفسي، سيطرد من استانبول هؤلاء السلاطين الفاسدين الذين لا تقوم سلطتهم إلا على تحالف مع النصارى؛ وسيقوم بتوحيد القوى المشتتة لمؤسسي الإسلام العرب، وسيقيم إمبراطورية مستقلة لن تقع بعد الآن تحت رحمة القوى النصرانية... لكن يا للأسف! خابت تلك الآمال الأخيرة. أدركتُ أكثر من أي وقت مضى صحّة ما جاء في

(1) الشيخ شامل الداغستاني الذي حارب الاستعمار الروسي بناحية القوقاز، وقد توفي في الحجاز بعد سجنه الطويل في روسيا. وكان تحريره من السجن بتدخل من الأمير عبد القادر الجزائري لدى نابليون الثالث الذي تدخل بدوره لدى القيصر الروسي. **بحوث في التاريخ الإسلامي**، أبو القاسم سعد الله، م. س، ص345.

الحديث: «إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرةً، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنةً[1]».

ذلك هو الملخص الصادق كل الصدق لآراء شريف مكّة الأكبر المتعلقة بوضع الإسلام عندما زرته عام 1842م. وهي آراء غنية عن التعليق.

على الرغم من الصبغة الدينية التي كان يتّسم بها حديثه، ومن الألم الذي كان يشعر به وهو يقرّ بانحطاط المشاعر الدينية لدى المسلمين، لم يكن إيمان سيدي محمد بن عون راسخًا كإيمان عبد القادر. هو أيضًا، دون أن يقرّ بذلك ربما، كان اهتمامه منصبًّا على رفاهيته في هذا العالم أكثر من نِعَم الحياة الآخرة؛ كان مسلمًا محبًا للملذات، فيما كان الآخر مجاهدًا زاهدًا. لو أنني وجدتُ سيدي محمد بن عون مكان الأمير لكان بالإمكان تحقيق أحلامي؛ ولكان بإمكان فرنسا أن تجد فيه حليفًا مخلصًا، وبإمكان مسلمي الجزائر أن يجدوا فيه أميرًا يؤمن لهم السِّلم والازدهار. ولو كان الأمير عبد القادر مكان الشريف الأكبر لرفع راية السعوديين وهزم العثمانيين.

(1) هذا ليس بحديث شريف وإنما قول ينسب لابن تيمية بلفظ «إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرةً، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنةً»، وبلفظ: إن الله ينصر الحاكم العادل ولو كان كافرًا، ويهزم الحاكم الظالم وإن كان مسلمًا.

الفصل التاسع عشر

- **إقرار مجلس الطائف للفتوى**
- **وداعي الشريف الأكبر**
- **المظهر العام للطائف**

لم تكن أهمية أحاديثنا الحميمة لتنسي الشريف الأكبر البتة الهدف من مهمتي، وبصرف النظر عن الودّ الذي يكنّه لعبد القادر، أعار أذنًا صاغية للمعلومات التي قدّمها إليه مقدّم التيجاني، وهي شهادة أكدتها شهادة مقدم سيدي عقبة، ووِلْد سيدي الشيخ ومولاي طيب الذين قدموا إلى الطائف، بناءً على تعليمات صديقي القديم من عين ماضي، سيدي محمد التيجاني.

تمكّن سيدي محمد بن عون، آخذًا في الحسبان أن استمرار النزاع في الجزائر لم يعد مجديًا، وغدا ميئوسًا منه بعد اليوم، وقد جرَّ وسيجرّ أكثر فأكثر شتى أنواع الويلات على القبائل الجزائرية التعسة، من عقد مجلس مؤلَّف من علماء بغداد، ودمشق، والمدينة ومكّة الذين قدِموا إلى الطائف في هذه المدة لزيارته، وكان له على أكثرهم دالة تجعله يؤثر فيهم.

وبناءً عليه، قدَّم رفيقاي الميلود بن سالم الأغواطي، ومقدّم التيجاني فتوى القيروان التي أقرَّها علماء القاهرة إلى مجلس الطائف. وقد أثارت السخط والمعارضة الشديدة التي أبداها الشيخ السنوسي[1]، أحد أهم أتباع طائفة سيدي عبد القادر الجيلاني، مخاوف جادة لدى صديقي المخلص ميلود، لكن إقرار العلماء، مناصري الشريف الأكبر، المستند إلى رأي أشهر مفسريّ القرآن الكريم وضع حدًا للجدال؛ وفي أسفل الإقرار الذي يصادق على فتوى القيروان والقاهرة، والمنسوخ خلف هاتين الوثيقتين، وقع جميع أعضاء مجلس الطائف ووضعوا أختامهم. تسلَّمَ مقدم التيجاني اللفيفة المهمة؛ وسُلِّمَت نسخ أصلية لمقدم زاوية سيدي عقبة، ولولد سيدي الشيخ، ولمولاي طيب في بسّنس.

تعهد رفيقي الذكي والوفي، مفوض التيجاني، الذي تصرف ببراعة وحزم خلال تلك المفاوضات الشاقة بأن يقوم بعمل نسخة جديدة عن فتوانا، حالما نعود إلى مكّة، وهي نسخة كان ينبغي علي إرسالها إلى السيد الجنرال بوجو، الحاكم العام للجزائر، من طريق القنصلية الفرنسية في جدّة.

(1) عليّ أن أشير مرة أخرى إلى التأثير الخطير لهذا الشيخ المتعصِّب الذي قام مؤخرًا قنصلنا العام في طرابلس الغرب، السيد فيرو (Féraud) بفضح دسائسه وتحريضه على الجهاد.

وكما كان سيدي محمد التيجاني قد توقع، ما كانت مساعي المقدمين لتثمر، على الرغم من براعتهم وعزمهم، لولا تدخلي لدى العلماء والشريف الأكبر؛ وقد تصرَّف صديقي بحكمة عندما ألزمهم بالامتثال قطعًا لتوجهاتي. لكن تدخلي كان عديم الجدوى لولا التوصيات الاستثنائية التي زودني بها صديقي الرائع، السيد فرينيل، سواء لدى الشيخ تونسي، أو لدى شريف مكّة الأكبر. يعود الفضل إليه وحده في نجاحي في إتمام مهمتي، كما يعود الفضل في نجاتي من ميتة شنيعة إلى الصداقة التي تربطه بسيدي محمد بن عون.

يا للأسف! لم تتح لي قطّ سعادة ضم فرينيل إلى صدري ثانية، واستحال علي التعبير مشافهة لهذا الصديق الذي يمتاز بطيبة رهيفة، وبذكاء حاد، عن مشاعر الإعجاب والعرفان بالجميل التي سأظل أحملها له حتى النَّفَس الأخير!

كنا قد دخلنا للتو في شهر الحج الأخير (ذي الحجة)، وكنت حريصًا كل الحرص على أن أشهد وصول القوافل القادمة من الشام ومصر. وقد كان من المفترض أن تدخل مكّة في الخامس من ذي الحجة (الثامن عشر من كانون الثاني/ يناير). لذا طلبت من الشريف الأكبر أن يتكرَّم بإرسالي إلى هناك في الوقت المناسب. وقد أبدى موافقته عن طيب خاطر على هذا الطلب، بعد أن استحلفني قبل كل شيء بالعودة إلى الطائف، حالما تنتهي شعائر الحج التي يفترض أن يحضرها بنفسه.

لم يكن هناك من داعٍ لأن أرتبط بقسم فأرغم نفسي على العودة إلى هذا الرجل العظيم الذي هزَّ استقباله الودّي مشاعري، وأعجبني ذكاؤه الحاد. افترقنا كما يفترق الأصدقاء القدامى. ولم يبدِ أي خشية من عودتي إلى مكّة. أما أنا، فقد أقضَّت مضجعي هواجس مرعبة، عندما استأذنته بالانصراف.

بدت لي إقامتي لدى سيدي محمد بن عون حلمًا عذبًا. كم من الأمور عرفتها عن الإسلام في ساعات قليلة، وكم من المعلومات قد أجمعها بعد لو قدِّر لي أن أبقى بعض الوقت بقربه! أما اللغة العربية! فأين سيكون في وسعي أن أحظى بظروف مماثلة تجمع بين النظري والعملي! لأنني كلما تقدَّمت في دراسة هذه اللغة الجميلة أيقنت جهلي[1]. يثير التفكير في أن أصبح أحد أعلام الاستشراق خيالي منذ الآن، وخصوصًا بمساعدة صديقي الرائع السيد فرينيل الذي كان لا بدَّ له من أن يأتي على الدوام إلى جدة لاستلام بريده، وقد أعدّ له الشريف الأكبر مسبقًا مقر استجمام في الطائف.

وضع سيدي محمد بن عون في أثناء مدة إقامتي لديه تحت تصرفي جوادًا عربيًّا رائعًا، ولكنني لم أستخدمه

(1) راجع الملاحظة المتعلقة باللهجات المتعارف عليها في اللغة العربية في نهاية الجزء الثاني.

سوى مرة واحدة عندما قمت بزيارة الطائف؛ إذ كنت أجد فائدة كبيرة في الاستماع إلى أحاديث أبناء عم الشريف والعلماء الذين كانوا يمضون يومًا بكامله في الجناح الذي كنت أقيم فيه. لقد بدوا، هم أنفسهم، سعداء كل السعادة بالاستماع إلى قصصي، فلم يخطر في بالي أن أوجز هذه الأحاديث المفيدة كل الفائدة لتوسيع المدارك. لذا لم أزر الطائف وضواحيها إلا زيارة عابرة.

تقع مدينة الطائف الصغيرة كما سبق أن ذكرت وسط سهل رمليّ، محصور بين جبال قليلة الارتفاع تسمى جبال غزوان التي تشكِّل خاصرة لسلسلة جبال كبيرة شديدة الانحدار تلوح في الأفق تضاريسها الرائعة. أما أسوارها، فقد كانت موضع عناية جيدة، تتخذ شكل مرَبّع غير منتظم. يمكن الدخول إلى المدينة عبر ثلاث بوابات في الأسوار تعلوها أبراج ذات فتحات. أما القصر، إذا صح أن نطلق هذه التسمية على منزل أكبر من غيره من البيوت، فقد شُيِّد على صخرة عالية تُشرِف على الطائف. يمكن الوصول إليه من طريق ساحة كبيرة تستخدم سوقًا. الشوارع عريضة نسبيًا، أما البيوت فحالتها سيئة عمومًا، كما يمكن مشاهدة آثار الدمار الذي خلَّفه السعوديون في غير مكان. عدا مسجد سيدي ابن عباس الذي تعلو ضريحه قبّة بديعة حقًا، أما الصروح الدينية الأخرى فيبدو أنها ليست بذي شأن.

يوجد العديد من البساتين التي يُعنى سكان الطائف

بزراعتها، تقع في أسفل التلال، ويفصلها بالتالي عن المدينة السهل الرملي الذي يحيط بها.

زرت مع الأشراف تلك البساتين التي يُزرع فيها من بين شتى أنواع الأشجار المثمرة، كمّ هائل من شجيرات الورد التي تحظى ورودها بشهرة واسعة. وقد حصلنا منها جميعًا على باقات. أيُّ سحرٍ تغمرني به تلك الرحلات التي توصَّلَ أصدقائي من خلالها إلى قناعة مفادها أن ركوب الخيل هو عادة مألوفة لديّ. وكيف لا أبدو فارسًا مقدامًا، وأنا أمتطي جوادًا أصيلًا، حسن الترويض كالحصان الذي وضعه الشريف الأكبر تحت تصرفي. لقد لاحظت وقد تملّكني شعور بالحسد أن مرجان[1] يفوق جوادي سالم[2] جمالًا.

(1) هكذا يسمي العرب الجواد ذا اللون الأسمر الضارب إلى الحمرة والذهبي. ويبدو أنه اسم الجواد الذي وضعه الشريف في تصرف روش.

(2) اسم الجواد الذي أعطانيه عبد القادر (الرحالة).

الفصل العشرون

- العودة إلى مكّة في السادس عشر من كانون الثاني/ يناير ١٨٤٢م
- وصول القوافل
- الطواف
- التخييم في عرفات

غادرتُ والمقدّم الطائف في الخامس عشر من كانون الثاني/يناير، ممتطين مهارينا؛ زاد عدد حراسنا من الزنوج، وكان معنا جملان يحملان شتى أنواع الزاد. سلكنا طريقًا أفضل، لكنها أطول من تلك التي تجتاز القرية الجميلة الواقعة على سفح جبل كرا الرائع. بتنا أسفل السفح الغربي لسلسلة الجبال الشديدة الانحدار، قرب تجمّع بيوت صغير يسمى شدَّاد، حيث توجد آبار ممتازة، وعدنا إلى مكّة في السادس عشر. استغرقت رحلتنا إلى الطائف إذًا تسعة أيام.

سررتُ بلقاء المفتي العزيز وزوجته الفاضلة، ومنحني استقبالهما دليلًا جديدًا على العطف الأبوي الذي يكناه لي.

لقد شاء الله أن ألتقي دومًا، على الرغم من تقلبات حياتي المؤلمة قلوبًا محبّة ومخلصة أستمدّ منها الشجاعة والصبر.

أعلنَت لنا عدة طلقات مِدفعيّة، في الرابع مَن ذي الحجة (الموافق للسابع عشر من كانون الثاني/ يناير 1842)، وصول القافلة القادمة من الشام. خيَّمت في السهل الواقع شمالي مكّة، في مكان يسمى شيخ محمود.

ذهبنا في اليوم التالي لاستقبال القافلة القادمة من مصر، وقد أقامت في مخيمها المعهود، الواقع على منحدر تلال تحيط شمالًا بالطريق الواصلة بين مكّة والطائف، على بعد كيلومتر تقريبًا عن المدينة.

ارتدى جميع الحجاج الذين تجمّعوا في هذه القوافل ثياب الإحرام قبل يومين من الدخول إلى مكّة، شأنهم شأن كل الذين قدِموا إلى مكّة منذ بعض الوقت، واجتمع معظمهم في باحة المسجد الأكبر للاستماع إلى الخطبة التي ستُلقى بهذه المناسبة.

أيّ مشهد فريد في نوعه يمثله ذلك الحشد الذي يتضرع إلى ربّه بصوت مرتفع، يركع ويطوف حول الكعبة! وأيّ مشهد يفوقه تفرّدًا تقدِّمه المدينة التي غزاها آلاف الحجاج الذين يمثِّلون جميع الطوائف الإسلامية!

ومع ذلك أبديتُ اهتمامًا أقل من العادة بهذه المشاهد الفريدة، فقد كنت لا أزال محاصرًا بتلك الهواجس التي

بدأت تلاحقني منذ أن استأذنتُ الشريف الأكبر بالانصراف. زادت حالتي النفسية سوءًا بلقائي جزائريَّيْن بائسين وصلا مع القافلة القادمة من مصر، تسبَّبتُ بسجنهما لمدة عام جراء قيامهما بتزوير صكوك ملكيّة، عندما كنت أعمل مترجمًا محلّفًا. والتقيت بهما في ما بعد بين الأفواج النظامية التابعة للأمير عبد القادر. عندما أقبلا يسلِّمان عليّ بتذلّل، انتابني إحساس شبيه بالشعور الذي نحسّ به عندما نطأ بقدمنا أحد الزواحف السامة. إلا أنني نجحت في تبديد هذه المخاوف، وسرعان ما انشغلتُ بمشهدٍ لا يمكن وصفه لتلك الحشود من الحجاج التي تغص بها الشوارع والمحال والمساجد. خلا زيّهم من أي تنوع؛ لأنهم كانوا جميعًا تقريبًا يرتدون ثياب الإحرام؛ لكن يا لتنوع اللغات، والأجناس والملامح!

كان علينا نحن أيضًا أن نرتدي ثياب الإحرام، حيث كان على جميع الحجاج أن يتوجهوا في موكب إلى عرفات[1] في اليوم التالي، حيث تمّت أهم شعيرة من شعائر الحج.

مع شروق الشمس، سار الحجاج القادمون من الشام في الحادي والعشرين من كانون الثاني/ يناير في موكب عبر مكّة يرافقهم جنود أتراك قاموا بحراسة القافلة،

(1) مكان التعارف. حسبما جاء في السيرة العربية، أن آدم وحواء تعارفا على هذا الجبل بعد أن تاها مئة عام منفصلَين عن بعضهما.

يتقدّمهم المَحمَل[1]. وصل باشا دمشق وموكبه المتألق بعده مباشرة. نميّز في الموكب محفات مكسوة بأقمشة جميلة يحملها جملان عليهما محملان رائعان، مزدانان بسجف[2] على شكل بلوطة، وبأجراس صغيرة. كان جمهور السكان الذين لم يذهبوا إلى عرفات يهللون للحجاج لدى مرورهم.

تقدم حجاج المغرب الذين جاؤوا مع القافلة المصرية خلف حجاج الشام. وكان يتقدّمهم هنا أيضًا المحمل وأمير الحج، تتبعه سَريّة خيّالة وعدة مئات من الجنود المشاة النظاميين. وسط هذا الموكب الضخم، لمحنا كمًّا كبيرًا من الشبريّات، يسمونها في الجزائر عطاطيش[3]، وهي نوع من الهوادج توضع على الجمال مخصّصة لنقل النساء.

اصطف جميع الحجاج الذين كانوا في عداد قافلتي الشام ومصر، وانضم إليهم كل من وفد قبلهم، وبعض أهالي مكّة وجدة الذين جاءوا ليشاركوا في هذه الشعيرة المهمة، اصطفوا في موكب لا نهاية له، كانوا جميعهم يتلون بصوت عالٍ آيات من القرآن الكريم.

---

(1) جَمَل تُنصَب على ظهره قبة تقوم على قاعدة صغيرة يوضع عليها كتاب دليل الخيرات، وهو عبارة عن مجموعة من الأدعية.

(2) قال أبو القاسم سعد الله إنها شناشن. والشناشن: نواوير من قماش ملون وحلي بأشكال مختلفة يحدث خشخشة، ص343.

(3) تسمى في الجزائر أيضًا: الباصور. أبو القاسم سعد الله، م. س، ص343.

ركب المفتي وزوجته شبريّة، فيما آثرت ومقدّم التيجاني الذهاب سيرًا على الأقدام، حفاة نرتدي ثياب الإحرام.

سلك الموكب الطريق الذي سرنا فيه عندما قصدنا الطائف. كان يتّسع أو يضيق تبعًا لعرض الوديان التي يجتازها. إضافة إلى ذلك، عمّت الفوضى عينها التي نلحظها في جميع تجمّعات العرب الكبرى.

فرضت الشريعة على الحجاج التوقف في وادي منى، وهي قرية تقع على بعد ستة كيلومترات شرقي مكّة، ليتلوا فيه بعض الأدعية ويركعوا في بعض الأماكن إحياءً لذكرى توقّف النبي محمد ﷺ فيه. لكن المفتي أخبرني أن في وسعنا أن نعفي أنفسنا من تلك الشعائر لأننا أديناها لدى عودتنا من عرفات.

كانت المحالُّ البائسة، التي تقوم على جانبي شارع القرية التي كنا نجتازها، تحتوي شتى أنواع الأطعمة التي تباع بعشرة أضعاف قيمتها.

دلّنا مرشدونا، شمالًا، على جبل يدعى جبل ثبير، جاء في السُنَّة، أن إبراهيم كان سيقدِّم، فوق قمته، ابنه إسماعيل ضحية إلى الله. يُفرَض على الحجاج إحياء لذكرى هذا الحدث أن يضحّوا بذوات الأربع، أو بطير ما لدى عودتهم من عرفات، وبأداء هذه الشعيرة يكون الحج قد تمّ.

نفذنا إلى سهل عرفات بعد سير شاق نسبيًا في شِعب

جبلي يسمى المازمين[1]. هنا خيّمت القافلة الشاميّة في أسفل الهضبة المسمّاة جبل عرفات، على بعد مئتين أو ثلاثمئة مترًا نحو الجنوب ـ الغربي. وخيّمت القافلة المصريّة على المسافة عينها من هذه الهضبة نحو الجنوب ـ الشرقي.

نصب عِليَة القوم في مكّة وجدة خيامهم على بعد خطوات، باتجاه الجنوب. أبعد قليلًا نحو الجنوب ـ الشرقي خيّم الهنود والحجاج المتسولون. وعلى بعد أكثر نحو الشرق، خيّم البدو. حدِّدت مواضع هذه المخيمات المختلفة من سنين طويلة. أما السوق فيقع في قلب الوادي الذي يشغله الحجاج تقريبًا.

كانت الشمس قد غربت عندما وصلنا؛ كان الليل باردًا وحالكًا. سأمتنع عن وصف المشهد الذي تصوّره تلك المخيمات المتنوعة المُنارة بضوء النيران المشتعلة أمام خيام عِليَة القوم والمسلمين الميسورين. كان الضوء المنبعث من تلك النيران يتُيح رؤية آلاف الحجاج المتأخرين يتنقلون، كالأشباح، من خيمة إلى أخرى بحثًا عن مخيمهم. نداءات هؤلاء البائسين التائهين، والابتهالات الدينية والأناشيد البهيجة التي كان ينشدها أهالي مكّة وهم يضبطون الإيقاع بالتصفيق، والصيحات المتنافرة لأصحاب المقاهي والبائعين

(1) انظر رحلة بوركهارت، **الهلابي والشيخ**، م. س، ص 242. قال: ووراء المزدلفة دخلنا الجبال مرة أخرى من طريق ممر يقال له المازمين.

الجوالين، كل هذه الضوضاء المترافقة مع الخفخفة الكئيبة لأكثر من عشرين ألف جمل، كانت تؤلِّف جوقة صاخبة.

تمكّنتُ والمقدّم بعد ثلاث ساعات من البحث من العثور على عزيزنا المفتي وجماعته الصغيرة[1] يخيمان مع أهالي مكّة. كنت منهكًا ولا أعتقد أنني عانيت يومًا من برد بهذه الشدة. لحسن الحظ سمح لي المفتي بأن أتلفّع في حائك طويل من الصوف كانت رفيقتنا الفاضلة قد احتاطت بجلبه من أجل زوجها ومن أجلي.

كان التاسع من ذي الحجة عام 1257هـ (الموافق للثاني والعشرين من كانون الثاني/ يناير عام 1842م يومًا لن أنساه ما حييت. أعلنت لنا طلقة مدفعيّة بدء صلاة الفجر. وارتفعت من كل حدب وصوب أصوات المؤذنين من عدة مخيمات صدّاحةً رنّانة تدعو إلى الصلاة، أصوات نجهلها تمامًا في أوروبا وفي أفريقيا الغربية. بدءًا من القاهرة فقط صار الآذان لحنًا ساحرًا.

عندما طلع النهار، بدت لي المخيمات المختلفة في شكل جديد وهي تشغل مساحة قدرها من خمسة إلى ستة كيلومترات من الشمال إلى الجنوب، بعرض كيلومترين تقريبًا. كانت الخيام تشكِّل شوارع شبه مستقيمة تعجّ

---

(1) استخدم المؤلف كلمة smala، وهي كلمة تذكر المعاجم الفرنسية أنها الكلمة العربية «شمل»، وتعني مجموعة الخيام التي تضم أفراد الأسرة الواحدة.

بجمهور متراص. وسط مخيم القوافل الكبيرة، رأيت الخيّالة يتسابقون، مسلحين ببندقيات أو برماح، بينما كان الفوجان التركي والمصري وبعض السرايا النظامية يتدربون. كانت آلاف الجمال ترعى شجيرات ضامرة في التلال المُجدِبة المحيطة بالوادي.

صعدتُ والمقدّم برفقة مرشد إلى قمة جبل عرفات، لكي أستمتع أكثر بتلك اللمحة السريعة الرائعة. وعرفات تل صوّانيّ يسميه العرب كذلك جبل الرحمة. ينتصب إلى الشمال الشرقي من السهل القريب من الجبال التي تحيط به، لكن يفصله عنها وادٍ صخريّ. تشكِّل سفوحه منحدرًا. بدا لي أن ارتفاع القمة يبلغ ما يقارب ستين مترًا فوق مستوى السهل.

وقد نُحِتت مدرجات في الصخر في الجهة الشرقية من الهضبة. بعد أن تسلقناها، وصلنا إلى موضع صغير يسمى موضع سيدنا آدم. جاء في السُنَّة أن الملاك جبريل أرشد آدم كيف يتضرع إلى الله في هذا المكان.

في قمة هذه الهضبة وعلى الارتفاع نفسه، عشرون مترًا شرقًا، توجد منصة يفترض أن يجلس عليها الخطيب. في قمة هذه الهضبة، توجد أرضية، كانت تعلوها قبة في ما مضى، هدمها السعوديون، تدلّ على المكان الذي كان النبي ﷺ يصلي فيه في موسم الحج. فُرِشَت في جميع الجهات مناديل مخصّصة لجمع صدقات الحجاج.

شاهدت من فوق جبل عرفات، على طرف السهل، غربًا، أعمدة «العلمين»، التي ينبغي على الحجاج أن يمروا من بينها لدى عودتهم من التضحية؛ على مقربة منها، جنوبًا، يقع مسجد سيدنا إبراهيم؛ وفي الطرف الجنوبي ـ الشرقي، يقع المنزل الريفي الخاص بالشريف الأكبر. بُنِيت على سفح جبل عرفات خزانات عريضة تستخدَم في سقي رياضه، تغذّيها مياه القناة الاصطناعية التي تصل إلى مكّة. أخبرني مرشدي أن سهل عرفات بأكمله كان في ما مضى مرويًا ومزروعًا، وكان حينئذٍ بمنتهى الروعة.

كانت تغطي جزءًا من السهل حوالى ثلاث أو أربعة آلاف خيمة تخصّ حجاج القافلتين الشامية والمصرية. أما الحجاج الآخرون وبدو الضواحي فكانوا بلا مأوى. لم ألحظ أي تنظيم داخل مخيمات القافلتين. كانت الخيام تشكِّل عمومًا دوَّارات[1] منفصلة، لا شك في أنها تضمّ أناسًا ينتمون إلى المدن نفسها أو إلى القبائل نفسها. وضعت بعض الجمال وسط الدوَّار، لتسهل حراستها؛ لأن عليهم الاحتراز، على الرغم من قدسية الأمكنة، من

(1) يطلق العرب هذا الاسم على الموقع الدائري الذي تحيط به الخيام. وكتبها الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه، **بحوث في التاريخ الإسلامي**، م. س، ص338 دواوير وقال في الهامش: الدوار مصطلح جاء به روش من الجزائر، ويعني مجموع بيوت الشعر التي تضم عشيرة واحدة، ويجمع الدوار على دواوير. وانظر بوركهارت، **الهلابي والشيخ**، ص246: دُوَّارات.

السارقين وهم كُثُر ووقحون. وأعتقد أنني أقارب الحقيقة إذا قدّرت عدد الحجاج المجتمعين في عرفات بستين ألفًا. أكّد لي مرشدي أن القوافل، بما فيها القوافل اليمنية، تستخدم أكثر من عشرين ألف جمل.

قبل أن يحين موعد الصلاة، كان على الجميع أن يتوضؤوا بالقرب من الخزانات المليئة بمياه القناة الاصطناعية. من لديهم خيم يلتجئون إليها لإتمام تلك الشعيرة، فيما يضطر من لا يملك خيمة على الوضوء أمام الملأ. ولما كنت في عداد هؤلاء، كان يتهدّدني خطر كبير، لأنني، كما سبق أن ذكرت في بداية هذا الكتاب، لم أرتدّ عن ديني علنًا، ولم أكن مختونًا. هل تراهم لاحظوني؟ إن الحدث الذي سأسرده لاحقًا يجعلني متأكدًا من ذلك، ولكنني اتخذت جميع الاحتياطيات الممكنة، لأن الرعب كان يتملّكني من فكرة العذابات التي قد ينزلها بي حشد متعصّب وهمجيّ، لو عرف أني نصراني.

غير أن المدفع دوى، وتردد صوت الآذان مدويًا في السهل وفي جبل عرفات الذي كانت سفوحه مكسوّةً، تلك هي الكلمة المناسبة، في ذلك الحين بأكثر الحجاج ورعًا، ممّن كانوا يحرصون على الاقتراب من الخطيب. يعتلي هذا الشخص ناقةً بيضاء مطهمة، مرتديًا إزارًا فضفاضًا أبيض اللون، ويمسك بيده اليمنى عصا طويلة، يرتكز، ساكنًا،

على المنصة التي جئت على ذكرها أعلاه. يقال: إن النبي محمد ﷺ كان يخطب من هذا المكان في المسلمين الأوائل.

على مقربة منه وإلى الوراء قليلًا، اتخذ الشريف الأكبر مكانه، على مهرية رائعة، محاطًا بالعديد من الحراس والزنوج الذي يحملون أعلامه الخضراء البديعة، المزيّنة بأسجاف ذهبية وفضية، يحرِّكها الهواء فوق رأسه ورأس الخطيب (جرت العادة أن يعهد إلى قاضي مكّة بأداء هذه المهمة الجليلة).

لدى إطلاق أول طلقة مدفع كانت جميع الخيام قد طُويَت. والجمال قد امتُطيت وحُمِّلت، وجاءت لتصطف عند سفح جبل عرفات. شغلت القوافل، التي تقدّمها المَحمَل، الصف الأول، واصطفَّ خلفها باشا دمشق ينظم موكبه وجنوده النظاميين، وإلى جانبه أمير الحج المصري مع جنوده وخيّالته المصريين، ثم يأتي حجاج اليمن في الصف الأخير.

دوى صوت المؤذن يدعو إلى صلاة العصر للمرة الثالثة، وسرعان ما حلَّ صمت مطبق وسط هذا الحشد الذي كان منذ حين صاخبًا تسوده فوضى عارمة.

بدأ الخطيب خطبته. تعذَّر عليّ فهم ما يقوله، لكنني كنت أسمع ابتهالاته إلى الله تعالى؛ كان مع كل دعاء يرفع ذراعيه على مهل نحو السماء، ويحذو حذوه في هذه

الحركة ستون ألفًا من الحاضرين الذين كانوا يرددون مهلِّلين على نحو رائع: لبيك اللهم لبيك!

هل يمكن وصف مشهد مماثل؟ لن أحاول ذلك لأنني لو فعلت سأقلِّل من عظمته، وأنتقِص من روعته.

كان أكثر الحجاج ورعًا يتزاحمون في أثناء الخطبة على منحدرات جبل عرفات. بعضهم كان ينتحب، وبعضهم الآخر يقرع صدره، وبعض ثالث يركع، والعدد الأكبر منهم كانت تأخذه نشوة روحية.

مع ذلك، لئن كنت أبديت إعجابي بهذا المشهد العظيم، فشتان ما بين مشاعر الإيمان التي لمستها عند هؤلاء الجموع من الحجاج، وتلك التي رأيتها تشعّ على وجوه العرب الذين تماهَوا بأميرهم الجليل عبد القادر حين كان يبتهل إلى الله تعالى بمناسبة الأعياد الكبرى أمام صفوف الآلاف المتراصّة منهم. إذ إن قلّة من المسلمين يملكون الإيمان الذي كان يُلهِب مشاعر عبد القادر وأنصاره في الجهاد. أولئك المؤمنون الذين لم يكن شيء على الإطلاق يمس خشوعهم على الرغم من الظروف التي كانت تحيط بهم آنذاك، في حين أن السلوك المنافي للدين الذي ينتهجه العديد من الحجاج أو أهالي مكّة كان يمس بجلال شعيرة جبل عرفات، وبجلال كل الشعائر التي تجري في مكّة؛ لأنهم

يجتمعون في المقاهي الواقعة في الجهة الشمالية من الهضبة، يلهون، ويدخنون التبغ أو النرجيلة، وينصرفون إلى مشاحنات عنيفة. حتى إن بعضًا من أصحاب المقاهي والنسوة كانوا يأتون في أثناء الشعيرة ليقدِّموا القهوة وقطع الحلوى بين صفوف الحجاج. كان الشريف الأكبر مصيبًا عندما قال: إن الإيمان الإسلامي في تراجع.

الفصل الحادي والعشرون

- **اختطاف في عرفات**
- **جدة**
- **إبحار في البحر الأحمر**

دامت الخطبة حتى غروب الشمس. كان الليل على وشك الهبوط عندما أعلن المدفع انتهاء الشعيرة، لاحظت تحركًا كبيرًا حولي؛ سمعت صيحات، ميّزت من بينها هذه الكلمات: **ها، الرومي**[1]**، شدوا**[2] **الرومي، الكافر بن الكافر**. ثم أمسكتني، فجأة، أيدٍ شديدة القوة، وكُمَّ فمي، والتف حولي رباط جعلني عاجزًا عن الرؤية أو السمع، وكنت أكاد أتنفس. خيِّل إلي أن ساعتي أزِفَت، وأسلمت أمري إلى الله. شعرت أنهم يحملونني، ثم يضعونني بالعرض في مساحة ضيقة، وسرعان ما أدركت، من خلال حركات أعرفها حقّ المعرفة، أنني أركب مهرية، مشت حالًا بخطى سريعة. كان بطني يستند إلى الغارِب، وكانت ساقاي من جهة ورأسي من جهة أخرى. كنت مُقمَّطًا على نحو ساعدني على الحفاظ على وضعية أفقية

(1) الروميّ: وتعني النصراني

(2) شدوا بمعنى: أمسكوا.

تقريبًا، ولولا ذلك لاختنقت. وللقارئ أن يتصوّر الأفكار التي كانت تخطر في بالي آنذاك!

بعد حوالى ساعة، أناخ السائق الذي كان قد أبقاني متوازنًا دابته، وعمد شخص أو شخصان غيره إلى وضعي برفق على الأرض، ورفعا رأسي. مرّت لحظات، أوشكتُ فيها على الاختناق. نُزعَت الكِمامة عن فمي، وحُلَّ وثاق ساقيَّ، لكن بقي القِماط ملفوفًا على ذراعيَّ ورأسي؛ لم أكن أرى أو أسمع. لكنني بدأت أشعر بالاطمئنان عندما لمستُ رفقًا في لمسات من يقودون راحلتي.

أقعِدتُ، جالسًا إلى حد ما، على سرج مُقرن، وأمسكت بي ذراعان قويتان عندما قامت المهرية وتابعت عدوها، كيف يمكن قياس الوقت في ظرف مماثل؟ مما لا شك فيه، أنني عندما أنزِلتُ، ونُزِعَ عني القِماط الذي كان يشدّ عليّ، فتحت عيني، فوجدت نفسي في غرفة ذات نافذة مواربة قليلًا، وأدركت أن الوقت لا يزال ليلًا. لاحظت عندئذ أن من يقود راحلتي زنجيان. طلبت منهما بعض الإيضاحات. ظلا صامتين، يعاملانني بمظاهر احترام لا لبْس فيها، وقدَّما إلي وجبة خفيفة قوامها بلح، وفطائر بالزبدة مع حليب، ثم انصرفا بعد أن انتهيا من تقديم الطعام إلي. كانت الغرفة تنار بشمعة ضخمة. مؤثثة بأناقة بأنسجة قطنيّة مُخطَّطة، وفُرشَت الأرضيّة بحصائر جميلة، وفي إحدى جوانب الغرفة وُضعت أريكة عريضة. أسرعت إلى النافذة، عَلِّي أن أتحقّق من المكان الذي كنت موجودًا فيه، لكن النافذة كانت موصدة

من الخارج. ولم يكن أمامي سوى أن أتحلى بالصبر. تغلبت الغريزة على الروح، أكلت بشهية مفرطة كل ما قُدِّم إلي، فقد بقيت معدتي المسكينة خاوية مدة ثماني عشرة ساعة. ولا شك في أنني كنت مستغرقًا في نوم عميق لمّا أيقظني دخول الزنجيين: كان الأول يحمل طستًا وإبريقًا، والثاني صُرّة ثياب معطرة. لزِمَ الزنجيان الصمت نفسه، على الرغم من أنني كنت أسأل بإلحاح. لم أكن أرتدي سوى ثياب إحرامي والقماط الذي كنت ملفوفًا به. توضأت وصلّيت سريعًا. كان من المهم الآن أكثر من أي وقت مضى أن يعرف الجميع أنني مُسلِم. ارتديت بعد ذلك قميصًا قطنيًا رقيقًا، وعباءة من الصوف الأبيض، وقفطان من حرير كستنائي وأصفر اللون، وعمامة بيضاء من الموسلين المطرَّز بحرير ذي لون أصفر كلون التبن. ما إن انتهيت من إصلاح مظهري حتى جاءني واحد من الأشراف الذين كان لي معه حديث ممتع عندما كنت في الطائف. عانقني بمودّة وبعد أن أبدى إعجابه بمظهري الذي كنت أبدو فيه كشريف مِكاويّ، إليكم ما أطلعني عليه:

«أخبرني سيدي محمد بن عون، شريفنا الجليل، أنه لمّا كان لزامًا عليه حضور شعيرة عرفات المهمة، قصد مكّة في اليوم التالي بعد مغادرتك الطائف. في اليوم نفسه الذي كان سيشهد الخطبة على جبل عرفات، جاء القاضي ليخبره أنه عَلِم من بعض الحجاج الجزائريين أن نصرانيًا، متنكرًا بزيّ مُسلِم، وصل إلى مكّة منذ بعض الوقت. ويؤكد هؤلاء

الجزائريون أنهم يعرفونه حقّ المعرفة، لأنهم قابلوه في الجزائر. وقد شهدوا أنه كان جاسوسًا أرسلته الحكومة الفرنسية، وسبق لهم أن حرّضوا بعض المغاربة على القبض عليه، وإثبات أنه ليس مسلمًا.

«صدَّقَ القاضي وشاية الجزائريين ونصح الشريف الأكبر باتخاذ الإجراءات الضرورية للقبض على الكافر، وجعْله يدفع حياته ثمنًا لتهوره الذي حمله على أن ينتهك حرمة الأماكن المقدسة الإسلامية. أدرك سيدي محمد على الفور أن الأمر يتعلق بك؛ ووعد القاضي بأن يتّخذ تجاه الجاسوس الفرنسي الإجراءات التي تفرضها الشريعة الإسلامية ضد مدنِّسي المقدّسات، متظاهرًا بأنه يشاركه استنكاره.

«على الفور صدرت تعليمات سريّة أُبلِغ بها بعض الأشراف الذين عرفوك في الطائف، والزنوج الذين كلّفوا بمرافقتك إلى مكّة في الذهاب والإياب. لكن كيف في وسعنا أن نجدك وسط هذه الحشود من الحجاج؟ ظلت مساعينا (لأنني كنتُ من بين الأشراف المكلّفين بالعثور عليك) بلا جدوى حتى هبوط الليل، حين استرعت انتباهنا صيحات كان يطلقها بعض المغاربة، ميّزنا منها بوضوح مفردات مثل رومي، كافر. اندفع زنوجنا باتجاهها، وتمكنوا من التعرّف إليك واختطافك عندما كان المغاربة يهمون بالانقضاض عليك. احتشدت الجموع إثر تنبُّهها للصيحات التي دلّتنا لحسن الحظ على مكان وجودك، حتى غدا من المتعذّر على مهاجميك تتبع أثر زنوجنا الذين تمكنوا من الوصول إلى

مخيم الشريف الأكبر دون مواجهة أي تعقيدات مزعجة، وهناك اتخذت إجراءات فورية على إثر رواية القاضي. أطلَعتُ بنفسي الشريف الأكبر على ما انتهت إليه مساعينا، وكنتُ أنا من كلَّفَهُ باصطحابك إلى هنا، في جدّة[1].

«عندما اطمأن سيدي محمد على وجودك سالمًا معافى بين أيدينا، انزاح عن صدره همّ ثقيل؛ لأنه، فضلًا عمّا يكنّه لك من تقدير ومودة، يعدُّك أمانةً غالية عَهِد بها صديقه الشيخ فرينيل إلى عنايته ورعايته.

«كُلِّفتُ بترحيلك هذا المساء إلى القصير[2] على متن سفينة من سفن الشريف الأكبر، ربَّانها هو أحد أوفى رجاله. ستجد في القصير قوافل تقصد قنا، ومن هناك، ستبحر ليلًا. وستقوم بتسليم هذه الرسالة إلى الشيخ فرينيل. كان الله في عونك!».

كنت تواقًا إلى الموت، وإذا بي أشعر بالسعادة لبقائي على قيد الحياة، لعَمري إنه شذوذُ عقلٍ تائه! ومع ذلك كان المستقبل يتراءى لي بألوان داكنة أكثر فأكثر.

وددتُ لو أطلب من الشريف الأكبر إيضاحات أخرى، وكنت أفضِّل أن أسلك طريق دمشق، حيث لا خوف أبدًا من

(1) وهكذا ست ساعات تقريبًا كانت كافية حتى تقطع المهاري التي نمتطيها مسافة 76 ميلًا التي تفصل جدّة عن مكّة (الرحالة).

(2) ميناء مصري على البحر الأحمر.

أن يتعرف إليّ أحد، ثم أقصد القدس من هناك؛ لكن أوامر الشريف الأكبر كانت محددة؛ لاسيما أنه أخذ الأمر على عاتقه، وأنا الذي كنت مدينًا له بالكثير كيف عساي أخالف أيًّا من رغباته.

ما إن حل الظلام، حتى اصطحبوني، عبر شوارع مقفرة، إلى بوابة فُتحت لدى اقترابنا، ومنها نفَذنا إلى رصيف كان قارب ينتظرنا فيه. رغِبَ المفتي الفاضل في مرافقتي على متن مركب صغير (يسمّونه في البلد سمبوك)[1]، أوصى ربّانه بي بحرارة. سلّمني صرّة مليئة بقطع نقدية ذهبية وفضية، وفارقني مبديًا عاطفة أثَّرت فيّ.

أيّ عرفان بالجميل أدين به لهذا الشريف الأكبر ولأتباعه الذين قاموا بانتشالي من أيادي أبناء دينهم المتشددة، وأحاطوني بالرعاية وبالمعاملة الحسنة دون أن يهتموا بأن يستقصوا عمّا إذا كنت نصرانيًّا أو مسلمًا، مع أنه أمر له الأولوية لدى أنصار النبي محمد ﷺ.

(1) من أنواع المراكب البحرية المعروفة عند العرب، كان مستعملًا لأغراض النقل في الخليج العربي والبحرين الأحمر والهندي عند بداية العصر الحديث. يلفظ أحيانًا سنبوك، أو سنبوق، أو صنبوق. انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مصطفى عبد الكريم الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416هـ/ 1996م، ص258.

الكتاب الرابع

من جدّة إلى الإسكندرية

الفصل الثاني والعشرون

- رسالة فرينيل
- مغادرة جدّة
- الوصول إلى القصير
- المغربي الشريف
- الوصول إلى قنا

أمّا وقد وصلتُ إلى هذا المقطع من حكايتي، سيتساءل القراء حتمًا: «كيف استطاع السيد ليون روش أن يمدّنا بكل التفاصيل السابقة ما دام قد اختُطِفَ شبه عارٍ إبان الوقوف في عرفات، لا بدَّ أنه أضاع كل ما كان يملكه، حوائجه، وأسلحته وملاحظاته التي كان يدوّنها خلال رحلته؟...».

كي أزيل سريعًا الشبهات التي من شأنها إثارة الشكوك بصدقيتي، سأستبق الأحداث وأقتطف المقطع التالي من رسائل صديقي فولجنس فرينيل:

«القاهرة،

22 تشرين أول/ أكتوبر 1842 .

«... حتى أعذرك لأنك لم ترسل لي بعد حكاية رحلتك، وهي إحدى أهم الرحلات التي أقدَمَ عليها أوروبيّ، تتذرع

بضياع ما دونته من ملحوظات. أقول تتذرع، لأن ذاكرتك القوية تجعلك لا تحتاج إليها. حسنًا، من الآن فصاعدًا، لن تجد أبدًا حجّة أو عذرًا لتقدّمه، طالما، تزامنًا مع هذه الرسالة، سيقوم سيد الحاج محمد المزاري[1] الذي نصحتني باللجوء إليه، بإعادة ملابسك، وأسلحتك، وكتبك العربية، وجميع أوراقك بعد أن سلّمها رفيقك المفتي سيد الحاج حسن، فور عودته من مكّة، بحرصٍ شديد إلى صهره الشيخ تونسي، الذي أحضرها إلي وهو يكاد يطير فرحًا.

لا بدَّ أنك نِلت بعضًا من جاذبيتك من شفاعة أحد الأولياء المغاربة الكبار، لأنك أسَرت، بل يبدو أنك سحَرت عن طيب خاطر، جميع المسلمين الذين عرفوك في القاهرة وفي مكّة. أجابني صديقي الشريف الأكبر ابن عون، الذي شكرته بحرارة لأنه تمكَّن من انتشالك من ميتة شنيعة، إنه يعدّ تدخله في هذا الظرف واحدًا من خيرة الأعمال التي قام بها في حياته. «أدعو الله تعالى، قلتُ لنفسي في نهاية رسالته، أن يمنَّ علينا بلقاء نجتمع به وصديقك في ساعة ميمونة».

أعود إلى صديقك الفاضل المفتي الذي بكاك في الخفاء مصدِّقًا الإشاعة التي مفادها أن زنوج الشريف الأكبر عمدوا إلى قتلك، لكنه حرص أشد الحرص على

(1) نسيب المارشال مصطفى بن إسماعيل.

ألا يشتبه أحد بصِلاته معك. اضطره مرض زوجته إلى تمديد مدة إقامته في مكّة، ولم تكد تمضي بضعة أيام على مجيئه. كانت فرحة هذا الرجل الفاضل مؤثِّرة حين أبلَغه الشيخ تونسي، الذي لم يفتني أن أطلعه على فحوى الرسالة التي أرسلتها إلي من الإسكندرية، تعلمني فيها بعودتك من مكّة، بأن اختطافك قد تم بناء على أمرٍ من الشريف الأكبر، وأنك سالم ومعافى، وأنك تدين له ولزوجته المسنّة، ليلى شريفة، بعرفان جزيل للرعاية التي أحاطاك بها.

أما بالنسبة إلى الشيخ التونسي، وبيرّون، اللذين كتبا إليك في الوقت نفسه الذي كتبت إليك فيه، ليخبراك كم هي عظيمة حقًا المودة التي يكنّاها لك.

باشر بالعمل إذًا؛ وضع نصب عينيك أنّك تعهدت لي رسميًا بتسليمي حكاية رحلتك، وإنني غفرتُ لك لأجل هذا السبب جريمة الإضرار بالصداقة التي ارتكبتها حينما مررت بالقاهرة من دون أن تُطمئن ذلك الرجل الذي تسميه شيخك المبجّل، ومُنقذك، وهو بكل بساطة واحد من هؤلاء الذين سحرتموهم. إذا ما نسيت المودة التي يكنّها لك أصدقاؤك في القاهرة، فإنك جاحد للمعروف... إلخ».

سلّمني الآغا النمزاري، حامل رسالة صديقي فرينيل، الصندوق الذي كان المفتي قد أحضره واحتفظ فيه بملابسي، وأسلحتي، وكتبي وملاحظاتي. تحقق إيزيدور، الذي كان

على دراية أكثر مني بما كنت أملك في تلك الحقبة، من عدم وجود أي نقص في الأغراض التي حملتها معي من القاهرة، لدى مغادرتي متوجهًا إلى مكّة، إذ حرص هذا الخادم المخلص على الاحتفاظ بلائحتها. فضلًا عن ذلك، وجدنا في الصندوق التذكارات المختلفة التي اشتريتها في مكّة. كنت أكنّ للمفتي وزوجته مشاعر مودّة صادقة وتقديرًا فائقًا، لكنها ازدادت أضعافًا، عندما تسلمت رسالة فرينيل وفتحت الصندوق الذي أحضره رفيقي الرائع.

وأجد في نفسي رغبة جامحة في التعبير كذلك عن جزيل امتناني والذكرى العذبة التي أحتفظ بها عن العديد من المسلمين الذين منحوني، في أخطر الظروف وأصعب الأوضاع، شواهد ساطعة عن السماحة، والنبل والإخلاص المحض. جزاهم الله خير أعمالهم!

لكن حان وقت العودة إلى سمبوكي[1]، الذي سيغادر ميناء جدّة.

أخذوني إلى قمرة مقبولة، صغيرة وصَفَها الريّس محمد بأنها قمرة من الصنف الفاخر، وأقلعنا حوالى منتصف الليل. خلافًا لعادات البحّارة المسلمين الذين يبحرون في البحر الأحمر، ابتعد الريّس عن الشاطئ، لكنه لم يَسهُ عنه، إلى أن أصبحنا على مستوى ينبع، وعندها، توجّه مباشرة إلى

(1) مركبي الصغير، وقد سبق شرح الكلمة.

القصير، فوصلناها في السابع والعشرين من كانون الثاني/ يناير. عَبَرنا مئة وسبعين فرسخًا خلال أربعة أيام. إن ذلك يعد إنجازًا ضخمًا بالنسبة إلى بحار من البحر الأحمر.

تبدو القصير من البحر صغيرة بيضاء متأنقة. وحده الشاطئ الرملي يشكِّل الميناء. تُربَط السفن بالقَلْس إلى الأرض ولا بدَّ أنها تقذف إليها، وتتحطم الواحدة على الأخريات عند أصغر عاصفة. غادرنا السفينة على رصيف خشبي. شوارع المدينة نظيفة إلى حد ما. القصير هو أحد موانئ البحر الأحمر، تنطلق منه أهم العمليات التجارية. كانت المدينة قليلة الازدحام، لأن الحجاج لم يرجعوا. حللت في خان تعرّفت فيه إلى مغربيّ، قدّمَ نفسه إليَّ أنه تاجر ينوي الذهاب، مثلي، إلى قنا. قال لي: «الطريق آمنة، وسأرحل غدًا، دون أن أنتظر قدوم القافلة»؛ وأضاف: «يسعدني أن أضع تحت تصرفك أحد جِمَالي، وهكذا أستأنس بصحبتك حتى نصل إلى قنا». وافقت بتلطف وغادرنا في الثامن والعشرين، بعد شروق الشمس. عبَرنا بداية كثبانًا رملية، ثم أرضًا سَبِخة، تدعى امباجة، وخيّمنا في بئر البيضاء، حيث نصبت قبيلة عربية خيامها حوله. هناك شربت جمالنا وملأ الجمّالون قرب الماء، فما زال علينا اجتياز صحراء القصير؛ حيث ولمدة يومين طويلين، لن نجد إلا بعض آبار الماء الأجاج.

أحاطني رفيقي وخدامه بالعناية والرعاية، ولمّا كانت الليالي شديدة الرطوبة، كانوا يغطونني ببسط وينامون حولي.

دخلنا الصحراء، في التاسع والعشرين؛ وهي عبارة عن وادٍ مُجدِب يتّسع، ثم يضيق بين صخور عالية شديدة الانحدار ذات مظهر كئيب وموحش. خيّمنا، مساءً، في بئر مياهها رديئة تسمى بئر السيد، يقع في ممر ضيق ووعر.

في الثلاثين، سلكنا طريقًا رمليًا، تحده جبال مُجدِبة؛ في الحادي والثلاثين، مررنا بالقرب من بئر، مياهها رديئة، تسمى بئر الحمام، وأخيرًا وصلنا، مساءً، إلى بئر البحر، حيث فوجئت عيوننا برؤية غابة صغيرة من الأكاسيا. أبى رفيقي إلا أن ينزلني في غرفة صغيرة في «مزار المرابط» الذي أعطى اسمه إلى هذه المحطة. كنت تعبًا جدًا؛ فقد أنهكتني مشية جملي الثقيلة، وأُصِبتُ بنوبة حمى شديدة. ساعدني صديقي المغربي، الذي يدّعي بعض المعرفة بالطب، على نزع قفطاني وثوبي الحريري، ولفّني بغطاء صوفي كبير أعطاني إياه الشريف لأتغطى به في السفينة، وسقاني شرابًا مرًا يجعلني أتعرّق، كما قال، وتزول مني الحمَّى في الحال. وُضِعَت حوائجي وملابسي التي توجد فيها كيس نقودي بجانبي، وغرقت في نوم عميق. في اليوم التالي، أيقظني أعراب استغربوا كثيرًا وجودي في مزار المرابط، وسألوني من أين أتيت وأين أنوي الذهاب.

تعذَّر عليّ فهم أسئلتهم، لشدة ما كان رأسي ثقيلًا. طلبتُ ماء لأتوضأ. صلّيت صلاة الفجر، وبعد إتمام هذه الشعائر، حان دوري في طرح أسئلة على العربان المحيطين

بي. يا للأسف! لن أسمح لنفسي بعد الآن أن أغرق في الأوهام؛ لقد خدعني ذلك التاجر المغربي الذي رحل ليلًا بدناءة، مع مرافقيه وجماله حاملًا معه حوائجي، وملابسي وكيس نقودي، الذي تحامقتُ وفتحته أمامه فتمكّن بنظرة خاطفة أن يقدِّر أنه مليء بالنقود. كان واحدًا من أولئك المحتالين الذين يكثرون في مواسم الحج، كثيرًا ما كانوا يسهبون في وصف مكرهم وبراعتهم لي، وقد أخطأت عندما لم أحترس منهم.

لم يتبقَ لي سوى عمامتي، وقميصي، وعباءتي وغطائي الصوفي الكبير. كنت أتحزم على الجلد مباشرة بزُنّار طويل معلّق على رقبتي مرورًا تحت ذراعي الأيسر، نضدت فيه أجربة مخيطة من جوانبها الأربعة مخصّصة، تبعًا للعرف العربي، لحفظ التمائم. احتفظتُ في أكبر هذا الجعاب بجواز سفري الصادر عن القنصلية الفرنسية في القاهرة، والذي يثبت جنسيتي، أما بقية الأجربة فتحوي قطعًا نقدية ذهبية، وأيقونة للسيدة العذراء كانت عمتي، مدام شامبانيو، قد أعطتني إياها عندما سافرت إلى باريس، وأوصتني بألا أفارقها أبدًا. لكن لا يمكن لهذا الجواز وهذا الذهب أن يُقدِّما إليَّ أي مساعدة في الوضع الذي كنت فيه. لأن ظهوز جواز سفري قد يلغي حالة التخفّي التي كنت أحرص قطعًا على الحفاظ عليها، وربما أثارت رؤية ذهبي شكوكًا وأطماعًا خطيرة كذلك.

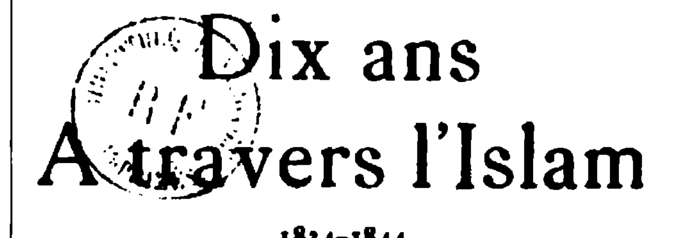
لحسن الحظ، زالت عني الحمّى، وعدا الصداع الناجم بلا شك عن المخدِّر الذي سقاني إياه المغربيّ. كنتُ أشعر أن باستطاعتي الوصول إلى قنا، بعد أن أكد لي العربان أنه لم يكن يفصلني عنها سوى مسافة قصيرة.

رثى هؤلاء العربان الفقراء لحالي فاصطحبوني معهم إلى أكواخهم الحقيرة، حيث قدّمت إليَّ زوجاتهم، أو بالأحرى إناثهن، قطع حلوى وحليبًا. بعد أن شدت هذه الوجبة البسيطة من عزمي، انطلقتُ بصحبة أحد مضيفيّ، وقد أبى إلا أن يرافقني إلى قنا. قبلتُ عرضه على الرغم من الريبة التي أثارتها لدي الخديعة التي وقعت ضحية لها، ومساءَ اليوم الثاني من شهر شباط/ فبراير عام 1842، وصلنا سالمين ومعافين إلى تلك المدينة.

النهاية

LÉON ROCHES

Interprète en chef de l'armée d'Afrique.
Ancien secrétaire intime de l'émir Abd el Kader,
Ministre plénipotentiaire.



Dix ans
À travers l'Islam

1834-1844

NOUVELLE ÉDITION

Préface et épilogue par E. CARREY

PARIS

[illegible]

PERRIN ET Cie, LIBRAIRES-ÉDITEURS

35, [illegible], 35

غلاف الطبعة الثانية من كتاب ليون روش

بعنوان

عشر سنوات في رحاب الإسلام

TRENTE-DEUX ANS

A TRAVERS L'ISLAM

(1832-1864),

PAR

LÉON ROCHES,

MINISTRE PLÉNIPOTENTIAIRE EN RETRAITE,
ANCIEN SECRÉTAIRE INTIME DE L'ÉMIR ABD-EL-KADER,
ANCIEN INTERPRÈTE EN CHEF DE L'ARMÉE D'AFRIQUE.

TOME SECOND.

MISSION A LA MECQUE.
LE MARÉCHAL BUGEAUD EN AFRIQUE.

PARIS,
LIBRAIRIE DE FIRMIN-DIDOT ET Cie,
IMPRIMEURS DE L'INSTITUT,
RUE JACOB, 56.

1887.

الجزء الثاني من كتاب ليون روش

Dix ans

À travers l'Islam



1834-1844

PAR

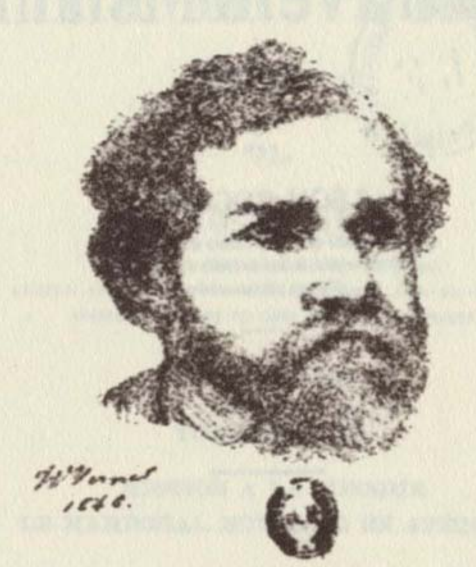
LÉON ROCHES

Interprète en chef de l'armée d'Afrique,
Ancien Secrétaire intime de l'émir Abd el Kader,
Ministre plénipotentiaire.

NOUVELLE ÉDITION

PARIS
LIBRAIRIE ACADÉMIQUE DIDIER
PERRIN ET Cie, LIBRAIRES-ÉDITEURS
35, QUAI DES GRANDS-AUGUSTINS, 35
1904
Tous droits réservés.

غلاف الطبعة الثانية الداخلي من كتاب ليون روش
ونظهر في أسفله سنة الطبع 1904م



LÉON ROCHES

بورتريه لليون روش عام 1846م

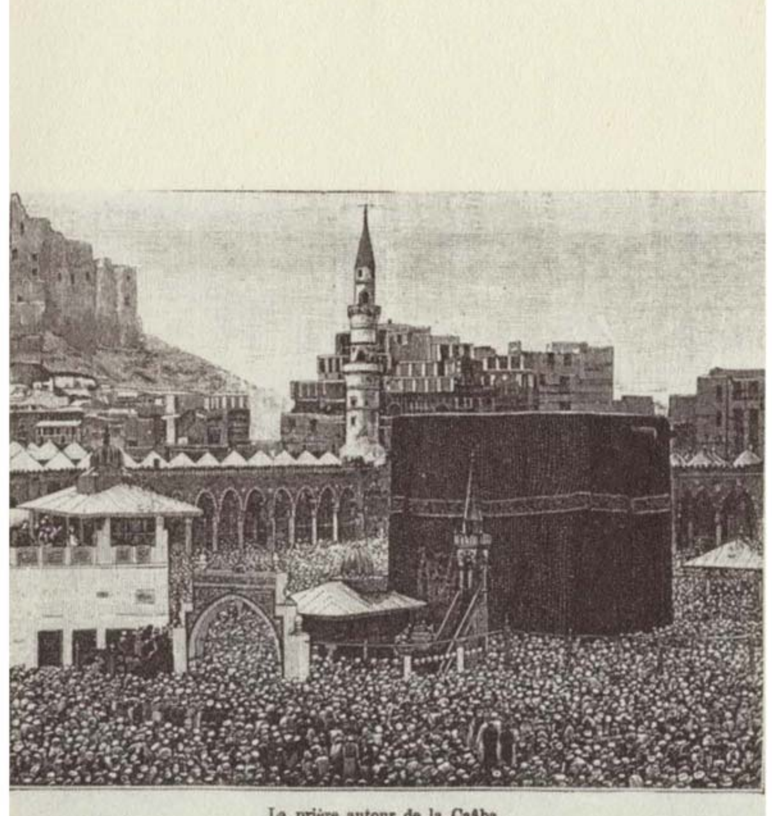


لوحة موجودة في المتحف التونسي ـ يبدو فيها ليون روش يسبق الإمبراطور نابليون الثالث في إحدى زياراته للجزائر العاصمة حيث قابل باي تونس. (روش على الحصان الأبيض).



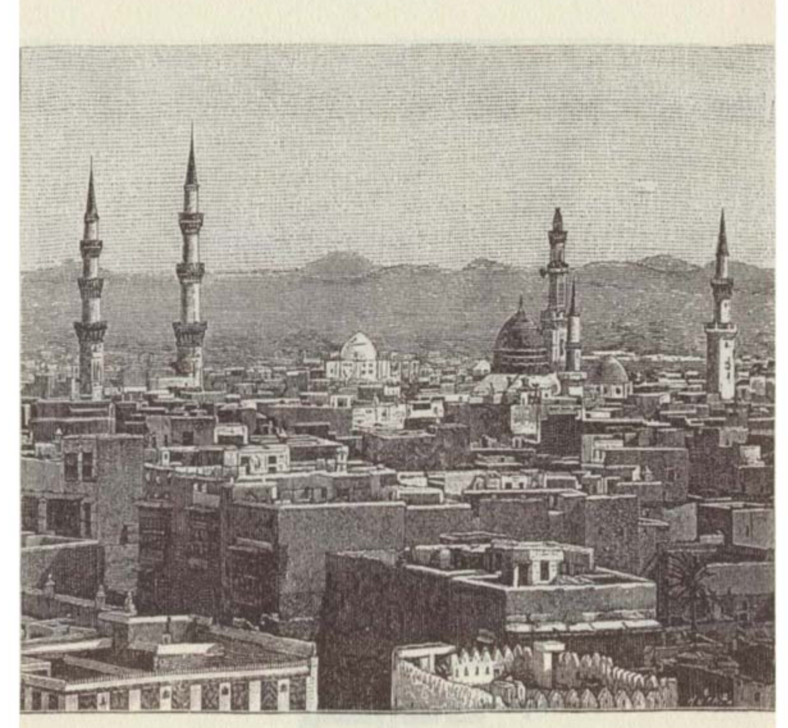
Ablutions des pèlerins.

وضوء الحجاج واغتسالهم



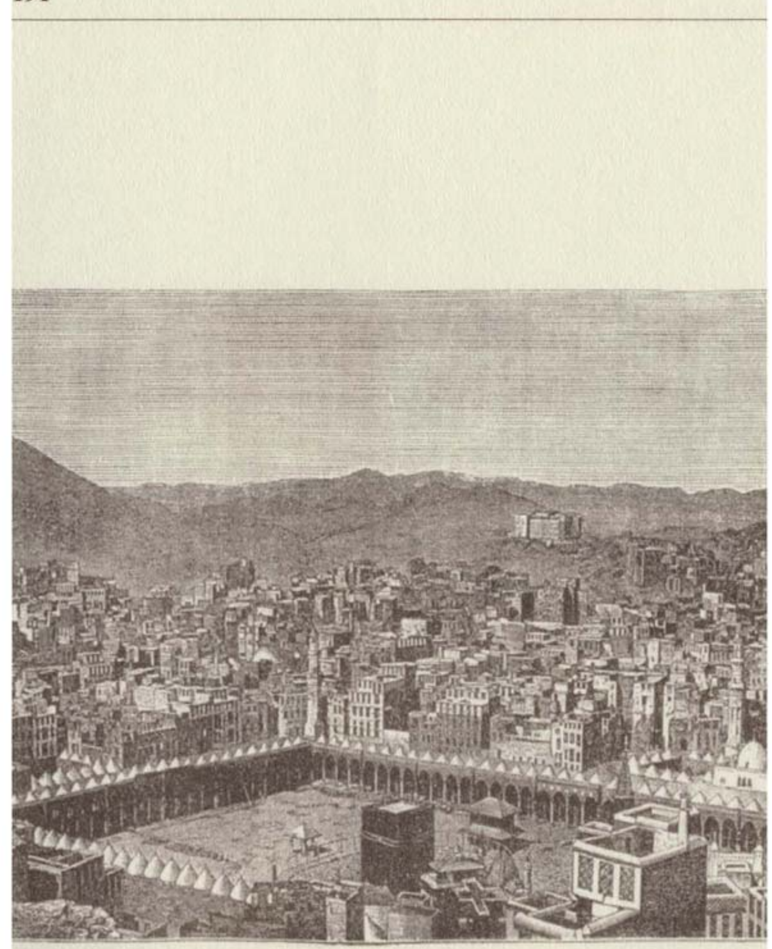
La prière autour de la Caâba.

الصلاة حول الكعبة



Vue de Médine.

منظر عام للمدينة النبوية



Vue de la mosquée de la Mecque.

منظر عام للحرم المكي

فهرس الأعلام

أ

آدم (عليه السلام): 92، 155، 160.
آغاسي، قزلر: 77.
آمنة: 127.
إبراهيم (عليه السلام): 75، 78، 91، 92، 101، 104، 113، 157.
الإبراهيمي، أحمد طالب: 7.
ابن أبي الموالي، عبدالرحمن: 68.
ابن أبي بكر، عبد الرحمن: 105.
ابن أبي طالب، حمزة: 78.
ابن أبي طالب، علي: 68، 78، 126.
ابن إسماعيل، مصطفى: 176.
ابن أنس، مالك: 78.
ابن بسيط، عبد الرزاق: 13.
ابن تيمية: 145.
ابن حنبل، أحمد: 111.
ابن الخطاب، عمر: 24، 67، 75، 94، 129.
ابن سعود، محمد: 70، 71.
ابن سعيد: 92.
ابن سمعان، سعيد: 111.
ابن عباس: 151.
ابن عبد العزيز، سعود: 72، 95.
ابن عبداللطيف السيد، صالح: 54.
ابن عبد الله، إبراهيم: 27.
ابن عبد الملك، الوليد: 76.
ابن عبدالوهاب، محمد: 69، 70، 71.

ابن عفان، عثمان: 75، 78.
ابن علي، حسن: 41، 42، 43، 45.
ابن عون، محمد: 25، 26، 80، 119، 129، 134، 135، 137، 140، 141، 145، 147، 149، 150، 169، 170، 171، 176.
ابن كلاب، قصي: 93، 94.
ابن الكلبي: 93.
ابن لحي، عمرو: 93.
ابن محجوب، عبد الله: 21، 23.
ابن مريم، عيسى: 67، 68، 81.
ابن نافع، عقبة: 23.
ابن هاشم، عبد الطلب: 94.
ابن والي، عمر: 23.
ابنة محمد، فاطمة: 68، 78، 126.
أبو غوش، فيصل أديب: 27.
أبو قتادة: 111.
أبو هريرة: 111.
إسماعيل (عليه السلام): 92، 93، 98، 134، 157.
الأغواطي، ميلود بن سالم: 21، 23، 25، 44، 45، 52، 53، 54، 80، 148.
إيزيدور: 37، 40، 41، 43، 177.
إيمريت، مارسيل: 12.

ب

با عامر، سليمان بن إبراهيم: 7، 8.
باديا، دومنغو: 26، 27، 95.
باريس، ليون: 18.
باغلي، أحمد: 7.
بيبرس: 76.
برتون: 8.
بروجر، أدريان بير: 12.

بطرس، رزق الله: 94.
البقاعي، محمد خير: 8، 27، 29.
البلادي، عاتق بن غيث: 87.
البلوي، إبراهيم: 69.
بلي، لويس: 70
البليهشي، محمد صالح: 65.
بو سماحة، عبد القادر: 22.
بوركهارت، جون لويس: 8، 10، 11، 12، 27، 66، 76، 77، 78، 86، 87، 122، 158، 161.
البوزيدي، يحيى بن أحمد: 91، 23، 44، 52.
بيرون: 24، 26، 36، 43.
بيكونري، توماس روبير بوجو: 9، 13، 14، 15، 17، 19، 21، 22، 25، 33، 37، 138.
البيهقي: 93.

ت

تشرشل، هنري: 13.
التماسيني، علي: 22، 33.
التونسي، حسن بن إبراهيم: 23، 36.
التونسي، محمد بن عمر: 24، 26، 36، 43.
التيجاني، أحمد: 22، 33.
التيجاني، محمد الصغير: 21، 22، 23، 33، 38، 44، 80، 147، 149.

ج

الجاسر، محمد: 55.
جبريل (عليه السلام): 127، 160.
الجزائري، عبد القادر: 9، 11، 13، 16، 17، 19، 21، 22، 23، 25، 33، 34، 40، 46، 70، 81، 116، 129، 135، 140،

144، 145، 147، 155، 164.
الجزائري، عبد الله بن عمر: 24، 129، 133.
جمال الدين، صباح: 94.
الجيلاني، عبد القادر: 148، 152.

ح

الحربي، فايز البدراني: 28.
حسن، سيد الحاج: 29، 33، 44، 176.
الحموي، ياقوت: 85.
الحناش، محمد: 16.
حوحو، أحمد رضا: 66.

خ

خديجة (زوجة الرسول): 127.
الخزاعية، فاطمة: 87.
الخطيب، محمد بن عبد الرحمن: 79.
الخطيب، مصطفى عبد الكريم: 172.

د

الداغستاني، شامل: 144.
دو أورليان، هنري: 17.
دو فابرغيت: 20.
دو كورانسية، لويس ألكسندر: 69.
دو لوغو: 20، 26.
دوفيرمان، ليبريري: 16.
دوكينسونا: 43.
دومال (دوق): 17.
دي غاريت: 18.
دي غوري، جيرالد: 80، 91، 94.
دينيه، ناصر الدين: 7، 8، 9، 10، 11، 66.

ذ

ذاكر، عبد النبي: 8، 10.

ر

روش، ليون: 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15،

16، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 28، 33، 36، 66، 70، 71، 78، 122، 129، 139، 152، 161، 175، 187.

ز

الزركلي، خير الدين: 12.
زيدان، جرجي: 92.

س

سعدالله، أبو القاسم: 9، 12، 16، 21، 24، 25، 33، 34، 35، 36، 122، 124، 139، 144، 156، 161.
سليم (السلطان): 77.
السنوسي، محمد بن علي: 25، 148.
السنيدي، صالح بن محمد: 27.
السهيلي: 93.

ش

الشافعي: 100.
الشهرستاني: 91.
الشيال، جمال الدين: 26، 43.
الشيخ، عبد الرحمن عبد الله: 27.

ص

صابان، سهيل: 77.
الصديق، أبو بكر: 23، 67، 126.

ض

الضبيب، أحمد: 70.

ط

الطنطاوي، محمد عياد: 26، 43.
طوسون: 73.

ع

عائشة: 105.
العباسي، علي = دومنغو باديا
عبد الحميد: 24؛ 36.

عبد الرحمن، نصرت: 91.
عبد العزيز (الملك): 12، 27، 69، 72، 73.
عبد الكريم، أحمد: 8.
عبد المعين: 71، 72.
العثيمين، عبد الله الصالح: 70.
العرفي، محمد بن نايف: 55.
عساكر، خليل محمود: 24، 36.
العقيقي، نجيب: 26، 27، 43.
علي باشا، محمد: 20، 25، 73، 73، 74، 138.
العمري، ابن فضل الله: 60.
العياشي: 121.

غ

غالب: 71، 72، 73، 74، 134.

ف

فاليه (مارشال): 33.
فرينيل، فولجنس: 20، 25، 26، 28، 35، 37، 41، 43، 44، 74، 119، 129، 134، 135، 137، 139، 140، 149، 150، 171، 175، 177، 178.
فهد (الملك): 77.
فيرجيه (كابتن): 20.

ق

القادري: 24، 80.
قايتباي: 76.
القطان، جمال الدين: 109.

ك

كارابي: 16، 18.
كورتلمون، جيرفيه: 14، 16.

ل

لورنس، جان دينيه: 7.

م

مانجان: 73.

محمد (ﷺ): 10، 11، 60، 61، 62، 63، 65، 66، 67، 68، 70، 72، 74، 75، 76، 77، 81، 89، 93، 94، 103، 105، 109، 111، 126، 127، 142، 143، 157، 160، 163، 172.

محيي الدين: 25.

مخزون، محمد: 122.

المزاري، محمد: 29، 176، 177.

المستعصم بالله: 141.

مسعد، مصطفى محمد: 24، 36.

مطر، أحمد: 28.

المعبدي: 87.

مناصرية، يوسف: 12، 13، 16.

المهدي: 76.

ميريميه، بروسبير: 20.

ن

نابليون الثالث: 144، 187.

هـ

هاجر: 92، 98.

الهلابي، عبدالعزيز بن صالح: 27، 76، 77، 86، 87، 122، 158، 161.

الهمداني: 60.

و

الواقدي: 68.

فهرس الأماكن

أ

آسيا: 71.
أُحد: 78.
الأردن: 27، 27، 80، 91.
إسبانيا: 121.
استانبول: 73، 74، 123، 142، 144.
الإسكندرية: 19، 20، 42، 177.
أفريقيا: 9، 14، 16، 17، 24، 36، 46، 78، 159.
أم القرى = مكة
أوروبا: 159.

ب

بئر البحر: 180.
بئر الحمام: 180.
بئر زمزم: 92، 94، 95، 99، 100، 104، 115، 121.
باب السلام: 90، 101، 103.
باب الشامي: 79.
باب الصفا: 104، 105، 106.
باب العمرة: 90.
باب العنبرية: 62
باب المدينة: 56.
باب المصري: 62، 85.
باريس: 7، 9، 12، 16، 18، 26، 181.
البتراء: 27.
البحر الأبيض المتوسط: 12، 13.
البحر الأحمر: 39، 42، 46، 54، 56، 85، 140،

167، 171، 172، 178، 179.
بحر العقبة: 46.
بدر حنين: 59، 60، 61.
برشلونة: 27.
بريطانيا: 27، 72.
بسّنس: 148.
بغداد: 26، 39، 69، 71، 147.
البقيع: 68.
بلاد الرافدين: 26.
بلاد العرب: 24، 36.
بلاد المشرق: 9.
بلد الإيمان = مكة
بوردو: 15.
بورينو: 125.
بوسعادة: 7.
بيت الله الحرام: 7، 8، 66، 91، 137، 142.
بيت المقدس: 75.
بيروت: 9، 12، 13، 24،
27، 36، 172.

ت

تركيا: 71، 127.
تمبكتو: 123.
تونس: 13، 14، 19، 20، 21، 23، 26، 27، 124، 187.

ث

ثنية الخليص: 87.

ج

جامع الأزهر: 20، 21، 23، 24، 25، 33، 38، 41.
جامع الغمامة: 60.
جامعة فاروق الأول: 26، 43.
جبال بني سنوس: 13.
جبال العقبة: 46، 51.
جبال غزوان: 151.
جبال الكرا: 131.
جبال لبنان: 62.
جبل أبو قبيس: 127.
جبل أيوب: 86.

جبل ثبير: 157.
جبل ثور: 127.
جبل الرحمة: 160.
جـدة: 19، 21، 26، 35، 39، 41، 54، 72، 85، 158، 167، 171، 175، 178.
الجزائر: 8، 9، 10، 12، 13، 14، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 27، 33، 34، 37، 38، 39، 40، 43، 63، 129، 138، 139، 140، 145، 147، 156، 161، 170، 187.
جزيرة العباسي: 55.
الجزيرة العربية: 8، 16، 26، 27، 28، 56، 66، 69، 72، 73، 80.
جزيرة سيناء: 92.
جورجيا: 125.

ح

الحبشة: 111.
الحجاز: 12، 14، 19، 23، 25، 27، 41، 60، 69، 72، 80، 85، 92، 135، 144.
الحجر الأسود: 97، 99، 103.
الحرمين الشريفين: 21، 23، 63، 80.
حصن البلقاء: 27.
الحطيم: 98.
حلب: 27.
حي الأغوات: 62، 77، 122.
حي الصفا: 122.
حي المعابدة: 130.

خ

الخليج العربي: 71، 172.
خُليص: 87.

د

دارفور: 36.

الدرعية: 70، 71، 73.

درنة: 42، 78.

دمشق: 39، 69، 92، 147، 156.

ر

رابغ: 86.

رأس الكرا: 131، 132.

الرايس: 85.

روسيا: 144.

الرياض: 8، 12، 16، 29، 60، 69، 73، 77.

ز

الزاوية التيجانية: 33.

س

السعودية: 12، 55، 70، 73، 95.

سمرقند: 125.

السودان: 24، 36، 110.

سورية: 125.

سوسة: 38.

سوق البلاط: 79.

السويس: 10، 41، 57.

سويسرا: 27.

سويقية: 123.

سيرينيكا: 42.

ش

الشام: 92، 142، 149، 154، 155، 156.

شبه الجزيرة العربية: 12.

شيخ محمود: 154.

ص

الصفراء: 85، 86.

ط

الطائف: 25، 80، 93، 119، 129، 130، 132، 133، 141، 147، 148، 149، 150، 151، 153، 154، 169.

طرابلس الغرب: 27، 132.

طنجة: 14.

ع

عرفات: 15، 98، 116، 117، 130، 153، 155، 157، 158، 160، 161، 162، 164، 167، 169.

عمان: 91.

عين زبيدة: 122.

عين ماضي: 22، 33.

عيون القصب: 53.

غ

غرونبل: 12، 14.

ف

فاس: 25.

فرنسا: 9، 12، 13، 14، 15، 17، 20، 21، 25، 26، 27، 35، 39، 40، 57، 138، 139، 145.

ق

القاهرة: 14، 20، 21، 23، 24، 25، 26، 27، 29، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 44، 46، 54، 55، 56، 61، 80، 96، 98، 121، 125، 136، 138، 148، 159، 176، 177، 181.

قباء: 78.

قبرص: 27.

القدس: 75، 81، 172.

القسطنطينية: 71، 72.

القصير: 41، 55، 56، 57، 171، 175، 179.

قلعة عجرود: 41، 42، 43، 45، 46، 51.

قنا: 175.

القوقاز: 144.

القيروان: 14، 19، 21، 23، 34، 36، 38،

39، 41، 80، 135، 136، 138، 148.

ك

الكعبة: 75، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 97، 98، 99، 101، 103، 105، 107، 108، 110، 113، 114، 115، 120، 154، 189.

كلية جوليان: 7.

ل

لندن: 94.

ليبيا: 25.

ليموج: 9.

م

المازمين: 158.

مالطا: 19، 20، 26، 34.

المحصب: 105.

المدرسة السليمانية: 107، 119.

مدريد: 27.

مدين: 51.

مدينة طولون: 12.

المدينة المنورة: 9، 39، 41، 42، 44، 54، 59، 61، 62، 63، 66، 71، 72، 75، 77، 78، 79، 80، 85، 87، 97، 100، 103، 104، 105، 111، 115، 120، 122، 125، 126، 127، 133، 147، 190.

مر الظهران: 87.

المروة: 104، 105، 106.

المزدلفة: 117، 158.

مستغانم: 25.

مسجد إبراهيم: 161.

المسجد النبوي: 10، 59، 62، 63، 64، 65، 75، 78، 79، 89، 103، 104، 105، 107، 108، 109، 110، 115.

مسجد الهنود: 133.
مسجد عائشة: 105.
مسقط: 72.
المشرفة = مكة
مصر: 14، 19، 24، 25، 27، 34، 36، 39، 55، 73، 76، 92، 111، 138، 139، 142، 149، 154، 155، 156.
المغرب: 12، 13، 15، 22، 23، 27، 33، 38، 56، 78، 156.
مكة المكرمة: 9، 14، 15، 16، 26، 27، 29، 33، 34، 35، 37، 39، 41، 42، 43، 44، 45، 54، 59، 60، 61، 63، 66، 71، 72، 73، 74، 78، 80، 81، 85، 87، 88، 89، 91، 92، 93، 94، 95، 103، 105، 106، 109، 111، 115، 116، 117، 119، 120، 121، 122، 124، 125، 126، 129، 130، 133، 134، 137، 138، 141، 142، 147، 149، 150، 153، 154، 157، 158، 161، 163، 164، 169، 170، 176، 177، 178، 191.
الميزاب: 98.
المناخة: 62، 79.
المويلح: 53.
ميمونة: 89.

ن

نجد: 69، 71.
نهر تافنة: 13.

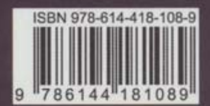


الكتاب

ليون روش مغامر ومترجم وسفير، عاش حياة مضطربة قادته إلى الجزائر، حيثُ كان يقيم والده، ثم التحق بالأمير عبد القادر الجزائري ورافقه مدة طويلة ادّعى خلالها أنه اعتنق الإسلام. ولما قامت الحرب بين الأمير وفرنسا انشقّ عن الأمير والتحق بالسلطة الفرنسية المستعمرة. وكلفه الجنرال بيجو، الحاكم العسكري للجزائر، بالسفر إلى تونس ومصر والحجاز حاملًا فتوى تدعو الجزائريين إلى قبول الحكم الفرنسي مقابل أن يحترم هذا الحكم دينهم وعاداتهم وتقاليدهم.

رحل روش ومعه الفتوى وحصل على مُصادقة علماء جامع الزيتونة في تونس وعلماء الأزهر في مصر، وعلماء المسلمين المجتمعين في الطائف بالحجاز، حيث مقر الشريف الأكبر، شريف مكة المكرمة. وقد وصل الحجاز أثناء موسم الحج فأراد أن يشهد هذا الموسم، لكن بعض الجزائريين تعرّف عليه في عرفات، ورفعوا أصواتهم استنكارًا لوجوده، وكاد يفقد حياته لولا الحراس الذين كلّفهم الشريف بمراقبته سرًّا، إذ قام هؤلاء باختطافه ومضوا به إلى جدة ومنها إلى مصر.

هذه الحادثة وغيرها مما تضمّنته رحلة روش، وما أثير حولها من شكوك تجعل نشر رحلته إلى الحجاز أمرًا كبير الأهمية، عظيم الفائدة.


ISBN 978-614-418-108-9

